د. جمال عبدالمنعم الزوي

القويري وأنا والبحر



القويري وأنا والبحر

د. جمال عبدالمنعم الزوي

القويري وأنا والبحر

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

القويري وأنا والبحر

د. جمال عبدالمنعم الزوي

الطبعة الأولى: 2020 م

رقم الإيداع المحلي: 2020/401

رقم الإيداع الدولي: 978-9959-921-79-6

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

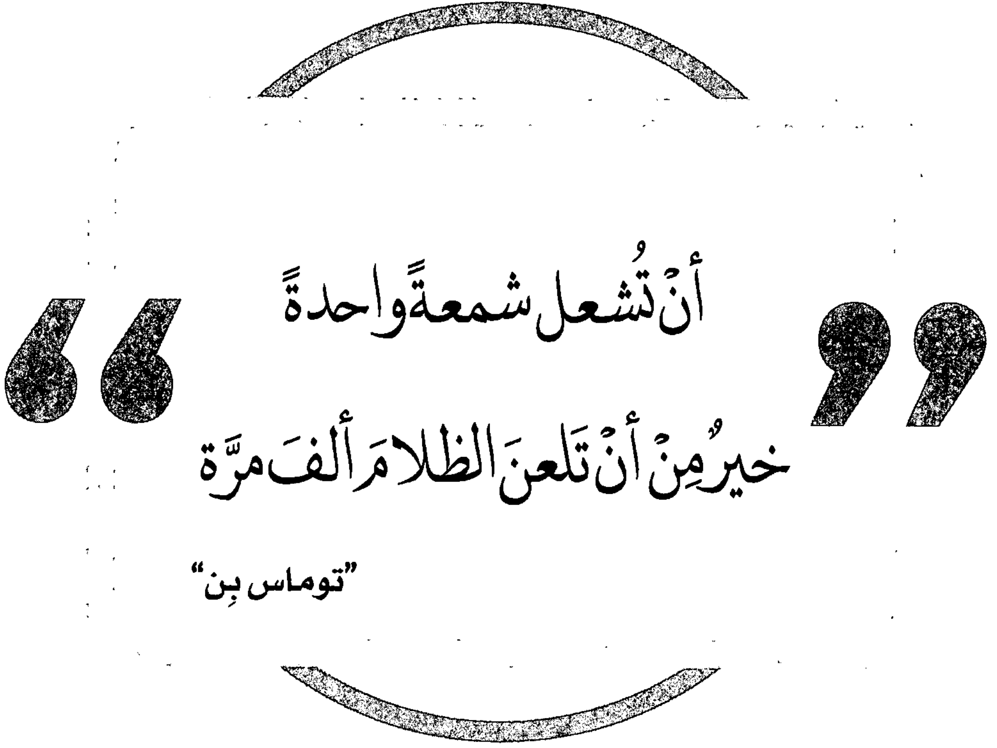
إهداء

إلى روحي أمي وأبي.

إلى كلّ الأعزاء..

إلى الذين يقدمون دونما مقابل..

إلى يوسف القويري..



أنْ تُشعل شمعةً واحدةً
خيرٌ مِنْ أنْ تلعنَ الظلامَ ألفَ مرَّة
"توماس بِن"

توطئة

جاءت فكرةُ هذا الكتاب منذ سنوات طويلة عندما نشرتُ مقالاً بعنوان "أنا والقويري والبحر"، وهو تدوين لحوار عابر أجريته دون مقدِّمات مع صديقي العزيز الأستاذ "يوسف القويري"، وحينها قلت لنفسي لماذا لا أستثمر تواصلي مع قامة كبيرة في مجال الثقافة والأدب شأن الأستاذ يوسف وأُجرِي معه مجموعة من اللقاءات يمكن أنْ تكون مادة صالحة لمشروع كتاب. وبالفعل طرحت الفكرة على الأستاذ "يوسف" الذي رحب بدوره بتسجيل لقاءاتنا التي عادة نجريها في أيام الأسبوع خلال فصل الصيف ونحن جالسين على شاطئ البحر.. وبالفعل ومُنذ ذلك الحين أجريت أكثر من سبعة وثلاثين لقاءً هي مُسَجَّلاً لَدَيَّ إلّا أنّ العمل على وضع الكتاب لم أتفرغ له بل كان يقع ضِمْنَ خارطة مشاريع المستقبل دائماً، وبشكل مفاجئ ودون ترتيب مسبق قررت أنْ أضع كتاباً علّ أنْ يكون فيه ما يفيد القارئ والمهتم بشأن الثقافة والصحافة معاً.

اخترتُ عنوان المقالة الأولى التي كتبتها عن الحوار مع "القويري" لكنني أحدثت تغييراً طفيفاً كان هو الأجدى أنْ يكون مُنذ البداية آخذاً بمبدأ تقديم الآخرين على الذات احتراماً وتقديراً فجاء عنوان الكتاب: "القويري وأنا والبحر".

قمتُ بانتقاء أحد عشر موضوعاً تضمَّنها أحد عشر لقاءً، وقمت بتفريغ تلك اللقاءات والأحاديث على الورق أولاً وهذه مسألة فيها الكثير من الصعوبة لما تحتاجه من وقت يُضارع أربعة أضعاف زمن اللقاء الواحد حيث التركيز وإعادة الاستماع

والتدوين ثم التعامل مع الحديث الذي ينتقل بين الفينة والأخرى عَبْرَ شعاب اللغة واللهجة العامية. وكنت كلما أكملت موضوعاً عرضته على الأستاذ يوسف للمراجعة والتدقيق. وكان الأستاذ يوسف في كثير من الأحوال يرغب في إحداث إضافات، فكنت أقترح عليه أنْ يَدَعْ الموضوع كما جاء في نصّ الحوار حتى لا يتحول الموضوع إلى مقالات مُحْكَمَة.

وبالتالي فإنّ مادة هذا الكتاب هي محصلة لقاءات غير مُحضّر لها من كلانا ولكنها جاءت هكذا، إلّا أنّ طبيعة الأستاذ "يوسف القويري" وشخصيته الثقافية الموسوعية تُشعرك وكأنّ الرجل يتحدث وهو يضع أمامه دائرة للمعارف.

مادة الكتاب راعيتُ فيها أنْ تكون مُعدَّة لمن يهتمون بالثقافة والصحافة في ليبيا فهي تُسجِّل وتدوِّن تاريخاً لهذا الشأن عَبْرَ تجربة الأستاذ يوسف القويري ومسيرته في مجال الصحافة الليبية التي يُعتبر بدون منازع أحد أهم ركائزها ودعائمها سواء من حيث الخبرة العملية بها أو من حيث براعته الفائقة في كتابة المقالة بجميع أشكالها.

كما تحوي مادة الكتاب نماذج لموضوعات من شأنها أنْ تعكس رؤية الكاتب والأديب الليبي الذي عاش المراحل الهامّة في تاريخ هذا البلد والتي ارتسمت معها معالم الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وشهد فيها الأدب والأدباء الليبيون مراحل بين المدّ والجَزْر وفترات من الإبداع والحركة والسكون.

ورأيت تقديم مادة هذا الكتاب كما جاءت، فهي أحيانا حوارية وأحياناً أخرى كأنّها سؤال وجواب وفي مواضع تالية مجرد انطباعات يسوقها الأستاذ "يوسف" عن أناس كانت أسماؤهم تَرِد ضِمْنَ موضوعات ذات علاقة فكنت أسأله عنهم أو أُدوِّن ما ذكره حولهم دون أنْ يكونوا — في حد ذاتهم — موضوعات خاصة للحوار. كما أنّ اختيار مادة الكتاب جاء لِيُظْهِر تنوّعاً في آراء "القويري" حول جُملة من القضايا.

آمل أنْ يكون هذا العمل موفقاً في تقديم جزء ولو بسيط من نهج الوفاء لقامات أدبية كبيرة أَمْضَت وقتاً طويلاً وهي تُنتج وتقدِّم دونما انقطاع.



مَنْ القويري؟

يوسف القويري كاتب ذو موسوعية أدبية وفكرية وثقافية، لم يلقَ الاهتمام الكافي ضِمْنَ وَسَطِه، حيث أنّ معظم القائمين على الثقافة من جميع الوجوه كانوا من الذين لا يشغلهم الشأن الثقافي في هذا البلد، بل يمكن القول إنهم كانوا أقرب إلى الهامش الثقافي، فظلّ الاهتمام يتركَّز على الكم وليس على الكيف، الأمر الذي أنتج سوقاً ثقافية مكتظّة بأسماء وأعمال يندُر فيها الجيد والمُبدَع وتذوب – في الكم الكبير من الأعمال المنتجة – أعمال القِلَّة ممَّن نعرفهم حقيقةً بأنّهم أدباء ومثقفون ثِقاة مارسوا الكتابة مُنذ زمن بعيد فكانت منتجاتهم تعبيراً عن الأمور الخالدة والمؤثرة في الحياة الثقافية، ومن أمثلة أولئك الأستاذ "يوسف القويري"..

موجز سيرة القويري

المرحلة الأولى : مصر 1938 – 1957

يوسف محمد محمد القويري، من مواليد مصر سنة 1938 في "سمالوط"، بَلْدَة صغيرة في ريف مصر، تتبع إدارياً محافظة "المنيا". يقول الأستاذ يوسف:

> لكنني – واقعياً – عشتُ وتعلَّمتُ في " بَنِي مَـزار"، وهي مدينة تجارية كبيرة ونشيطة ومفتوحة على الريف حَوْلَها مِنْ كلّ صَوْب.

أَظْهَرَ"القويري" مُنذ طفولته المبكِّرة حُبّاً للقراءة والكتابة، وقد هَيّأت له عائلته الدرس الخصوصي الذي لم يكن كنظام "الكتاتيب"، بمعنى أنّه لا يضم مجموعة من الأطفال، بل كان يُلَقَّن لكلّ طفل على حِدة من طرف معلم يزور تلميذه في مقر سكناه ويمضي معه وقتاً يعلِّمه فيه أصول اللغة العربية. يقول الأستاذ يوسف:

> رافقَ الدَّرس الخصوصي – بشكل مستقل – المرحلة الأولى الإلزامية من التعليم "الروضة"، وكان المعلِّم الذي يقوم بالتدريس يمتطي "حماراً" هـزيلاً ويحمل في يده "العصا". وعلى التلميذ الصغير أنْ يكون مُزوَّداً بلوح "إرْدِوازْ" يكتب عليه ما يمليه المعلم الخاص في "بني مَزار".

أتَمَّ القويري دراسته التالية في مدرسة "سَيِّد عبدالغني" الابتدائية ببني مَزار، وهي مدرسة – كما يقول القويري – شاسعة الأرجاء، كلاسيكية الطِراز وفخمة، ومؤسسها – الذي تحمل اسمه – رجل فاضل من كبار رجال التربية والتعليم، وهو أيضاً ناظر تلك المدرسة. وعندما بدأ القويري دراسته التالية للابتدائية في "مدرسة بني مَزار الثانوية" تميَّز في مادة اللُّغة العربية، وكان معلِّم اللُّغة العربية في تلك المدرسة يُولي اهتماماً خاصّاً لكلّ ما يكتبه التلميذ "يوسف" في كراسة الإنشاء أو التعبير، فقد لمس المعلِّم في تلميذه موهبة وبراعة ومقدرة على الكتابة والتعبير بشكل أدبي متميّز، فكان المعلّم يحرص على تدوين ملاحظاته وتعليقاته التشجيعيَّة في كرّاسة "يوسفَ". ويعتبر"القويري" أنّ هذا المعلم ذو فضل كبير في تشجيعه على الكتابة المبكِّرة، فهو أول من أطلق عليه صفة "الأديب".

○ يقول القويري:

لقد كان هذا المعلم أولّ من أطلق عليَّ صفة "أديب" وكانت الملاحظة التي دوَّنها في كراستي باللون الأحمر هي: **أشكرك أيها التلميذ الأديب**، واستمرت هذه العبارة مرافقة لكلّ ملاحظاته على جميع ما أكتب.

والغريب في الأمر أنّ "القويري" الذي يتذَّكر أدقَ التفاصيل في حياته، لا يتذكَّر اسم هذا المعلم، ولكنّه يبقَى في ذاكرته كأول من شَدَّ على يده وشجَّعه على الكتابة. يقول القويري:

نعم إنّه لشيء غريب حقاً ألَّا أتذكَّر اسمه، لكنّه يبقَى بشَذَى علمه. لقد كان له فضل كبير، وكنتُ كلما كتبتُ موضوعاً في الإنشاء سارع بقراءته على تلاميذ الفصل.

ومع هذه المفارقة فإنّ "القويري" يذْكُر معالم أساسية لهيئة معلِّمه وبعض مساهماته الأدبية.

○ يقول "القويري":

رغم أنّه من خريجي الأزهر فقد كان "مُطربشاً" – يضعُ على رأسه "طُربوش"، فلم يكن "مُعمَّماً" أيّ من أصحاب العمائم شأن مشايخ الأزهر، وكان معلمي ينشر في جريدة "الأهرام" باباً بعنوان "مزالق في الأدب" و"مزالق في السياسة".

كان يوسف القويري خلال فترة التعليم الابتدائي مُنتمياً إلى جمعية الأخوان المسلمين، وعضواً في أسرة – بمعنى حلقة – "الإمام حسن البنا"، وكان مُعجباً بـ"الجوَّالة"، وهي حركة كَشْفيَّة تابعة للأخوان المسلمين تضم عناصر من أعمار مختلفة.

● يقول القويري:

أطلعني على حركة "الجوَّالة رجل طيب كان يعمل "حمالاً" خاصاً في مَتْجَرِ والدي، ولم يكن هذا الرجل الطيب عضواً في جمعية الأخوان المسلمين وليست في حوزته أيّ اهتمامات فكرية، وأغلب الظن أنّه كان مُوْلَعاً بالطقوس بما فيها من طبل ورايات وضوضاء مريحة، والدليل على صحة ظني أنّه كان يندمج ويدمجني معه في مواكب الطرق الصوفية التي تعبر الشوارع بأعلامها الحريرية وطبولها الكبيرة وموسيقاها المستنفرة لأقدام الصبيان. وبعدئذٍ – في إطار تلك الفترة المبكرة – كنت أصغر عضو في الأخوان المسلمين، وقد أقَرَّ هذه الحقيقة الأستاذ "صالح عشماوي" – أحد أقطاب الجمعية البارزين – في خبر نشره في جريدة الجمعية الرسمية بعد محاضرتي في مقرّها ببني مَزار، وجاء في الخبر ما معناه: الأخ يوسف القويري أصغر عضو في الأخوان المسلمين على الإطلاق.

أكمل يوسف القويري دراسته الابتدائية وأكمل معها – على ما يبدو – مشواره مع الإخوان المسلمين، فقد كانت الدراسة الابتدائية خمس سنوات وتليها مباشرة المرحلة الثانوية في خمس سنوات كذلك. وفي الثانوية تفتَّحت أعين التلميذ على أفكار فلسفية مُغايرة وهو يدرس مادة الفلسفة التي

فتحت أمامه الباب على مصراعيه للتعرُّف على الفكر اليساري "الماركسي".

◎ يقول القويري:

بعد الالتحاق بالثانوية، تعرَّفت على الفكر الماركسي، والفكر غير التنظيم الحَرَكِي، حيث لم أكن عضواً في أيّ تنظيم شيوعي، ولكنني تعرَّفت مبكراً على الفكر"الماركسي" والفكر "الراديكالي" بصفة عامة.

ومن الشخصيات التي تعرَّف بها يوسف القويري في هذا المضمار الكاتب المصري الشهير الأستاذ "سلامة موسى"، عضو جمعية "الفابيان" البريطانية والصديق الشخصي لـ"سدني ويب" مؤسس تلك الجمعية التي من كِبار أقطابها الروائي العالمي " جورج برنارد شو".

وقد شهدت فترة دراسته الثانوية اضطرابات سياسية في مصر، قام النظام الجديد حينها بالضغط على اليسار والتمهيد لضربه، فأُودع اليساريون السجون والمعتقلات، وكان يوسف القويري من بين الذين شملتهم التُّهم حيث أمضى وقتاً طويلاً في المعتقل السياسي.

القويري والنشر

بدأ يوسف القويري النشر في نهاية الأربعينات حيث أخذ يكتب في صحف حائطية ومجلات يدويَّة تصدر عن جمعية الأخوان المسلمين مثل " لواء الأحرار". وفي سنة 1952 م شرع يوسف القويري في الكتابة في الدَّوريات المطبوعة. يقول القويري:

في تلك الفترة في" بني مزار" وبالتحديد سنة 1953 بدأت النشر المطبوع في جريدة " كوكب الوادي" لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ " زكي التهامي"، وهو عضو نقابة الصحفيين المصريين آنذاك، وقد أشرفت – دون احتراف مهني – على الصفحة الأدبية بالجريدة.

وكان يوسف القويري حينها قد أسَّسَ مع رفيقه وصديقه "إسحاق عبد المسيح" "ندوة الشباب" ببني مَزار، حيث أصدرا نشرة بنفس العنوان تتناول الأنشطة الأدبية والثقافية.

○ يقول القويري:

هي أوّل نشرة أدبية مطبوعة بآلة "المكبس" القديمة، وهي آلة مخصَّصة أساساً لطباعة "الكروت". وتجنباً لموضوع الترخيص كتبنا في الأعلى أنّها نشرة غير دوريَّة.

وكان هذا بداية الصدام مع السلطات. ورغم أنّه لم يصدر من تلك النشرة سوى العدد الأول فقد كانت ضِمْنَ موضوعات التُّهم التي وُجِّهت لهما في التحقيقات قبل الاعتقال.

وهناك في مسيرة "يوسف القويري" فترات أخرى من النشر كانت بين الأعوام 1953م إلى نهاية 1956م. ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

الأول: المعتقل، حيث ألقت السلطات المصرية القبض عليه، وقبل ذلك على النطاق العام شمل الاعتقال مجموعة كبيرة من الكتّاب والمفكرين والسياسيين المصريين. وقد التقى القويري خلال تلك الفترة بأبرز أعلام الأدب والثقافة المصرية داخل المعتقل كالدكتور "يوسف إدريس"، والدكتور "أنور عبد الملك" مؤلف كتاب "تغيير العالم" الذي صدر في سلسلة "عالم المعرفة" بالكويت، والأستاذ "عبد الرحمن الخميسي"، وتكوّنت بينه وبين هؤلاء علاقات طَيِّبة.

○ يقول القويري:

لم أكن بالضبط "منظَّماً" أو مُنتمياً إلى أيّ تنظيم يساري، إنّما كنتُ حسب ما يسمَّى مِنْ "أنصار السَّلام العالمي" وهي تسمية "رومانطيقية" لم تكن تحمل الدلالة السياسيَّة المعاصرة، ومِنْ طبيعة تلك التسمية أنْ يكون صاحبها عَلَنِيّ الاتجاه تؤازره جميع القوانين السارية بمعزل عن شبح العقوبة أو العَسف أو مصادرة الحرية في ذلك الوقت، إلّا أنّ الشيوعيين المصريين بسعة أفقهم كانوا يُشركونني في حلقاتهم المنعقدة داخل المعتقل الذي يعتبرونه " مدرسة للثوار"، والحق أنّه كذلك حيث أمضيت فترة طويلة في معتقل "أُورْدِي أبو زَعْبَل" السياسي المخصص بكامله لليساريين وللأدباء والشعراء المصريين الذين لا يروق إنتاجهم في أعين النظام حين ذلك، ومبنى المعتقل قريب من "لُوْمان أبو زَعْبَل" الجنائي الشهير المحتوِي على مَنْ صدرت ضدهم أحكام جنائية قضائية بالأشغال الشاقة المؤبَّدة ومدتها – كما هو معروف – خمسة وعشرين سنة. وخلال ذلك لم يُبْدِ الشيوعيون– في حلقاتهم التي دُعيت إليها في المعتقل المذكور– أيّ تبرُّم أو استهجان لاعتراضات واستفسارات كثيرة أَعربتُ عنها لهم حول تطبيقات المنهج الماركسي ذاته.

في تلك الفترة ساهم يوسف القويري في الكتابة للجرائد الحائطية التي علّقها المعتقلون وأخرجها فنيّاً كِبار رسامي مصر مِثْل "زهدي"، و"يوسف فرنسيس". كما كَتَبَ مسرحية قام بإخراجها الكاتب المصري الكبير عبدالرحمن الخميسي عُرضت داخل المعتقل.

الثاني: ما بعد المعتقل، وتواصلتْ علاقات القويري مع اليساريين مِنْ دار "روز اليوسف" وغيرها، كما كانت له علاقة بعدد من الشخصيات التي أسهمت بفاعلية في العمل الفكري والثقافي والصحفي، فقد توثقت مَوَدَّته بالأستاذ "سعد التائه" الذي أصدر – فيما بعد المعتقل – جريدة "المساء" القاهرية الشهيرة، وكانت له علاقة وطيدة بالأستاذ "محمود عبدالمنعم مراد" الذي نشر سابقاً – قبل معتقل أُورْدِي أبو زعبل" – في صحيفة "المصري"*[1] لسان حال حزب الوفد العتيد "مانْشِيتْ" على الصفحة الأولى بالخط الأحمر العريض: **مؤامرات ضد الشعب.**

◎ يقول القويري:

بسبب هذا "المانشيت" أُقفلتْ الجريدة، وكان الغوغائيون يقذفون مبنى "المصري" بالحجارة وهم يردِّدون: تسقط السَّقافة – أيْ الثقافة!!.

وواصل "يوسف القويري" الكتابة في عدد من الصحف المصرية، وكان أكثر صلة بجريدة "المساء" المصرية الشهيرة التي نشر على صفحاتها ضِمْنَ ما نشر مقالة بعنوان "الإرهاب في التلفزيون" شَجَبَ فيها "مكارثي" متهماً إيّاه بالتعدي على الحريات التي كفلها الدستور الأمريكي عندما اشتط السيناتور "مكارثي" في هجومه واتهاماته للشيوعيين الأمريكيين إلى حَدّ وصفهم بالنشاط المعادي للولايات المتحدة، حيث أوضح "يوسف القويري" في مقالته أنّ الدستور الأمريكي أتاح قيام حزب شيوعي في أمريكا.*[2]

*1– المسئولان في ذلك الوقت عن هذه الجريدة الكبرى هما الأستاذان: محمود باشا أبوالفتح، وأحمد بك أبوالفتح. وقد غادر محمود باشا مصر مع «عصاه الأبنوس الفاخرة « قائلاً:أنا ذاهب للمساهمة في إسقاط عبدالناصر. – «يوسف القويري»

*2– كان جوزيف مكارثي، عضو مجلس الكونجرس الأمريكي خلال الفترة ما بين 1947 – 1957، عُرف بعدائه للشيوعيين، وقد تحولت آراءه المعادية إلى نهج ساد أمريكا خلال الخمسينات – بل أصبحت «المكارثية» نهجاً لوصف الآراء المتشددة التي تصادرالآراء المخالفة لها – المؤلف

وقد رافقت هذه الفترة من فترات الكتابة عند "القويري" أحداثاً سياسية هامّة في تاريخ مصر، بعد العدوان الثلاثي وما جاء في أعقابه من تغيُّرات في المجالات السياسية والصحفية بشكل عام.

وكان شأن "يوسف القويري" شأن اليسار المصري البحث عن ملاذ آمن يوفّر الوقاية من بطش المواجهة التي فرضها النظام المصري آنذاك. فقد غادر مصر الدكتور "أنور عبدالملك" إلى أوروبا حيث أكمل حياته في فرنسا، وغادر مصر بدوره الأستاذ "عبدالرحمن الخميسي" إلى الاتحاد السوفيتي، أمّا "يوسف القويري" فسافر إلى ليبيا لأول مرة عائداً من المهجر، وكان ذلك سنة 1957 م ليبدأ المرحلة الثانية من حياته.

المرحلة الثانية: ليبيا

رحلة التسعة وخمسين عاماً

– عائلة القويري من العائلات الليبية التي تعيش في مدينة مصراتة، ومعروف عن الليبيين أنّ الكثير منهم هاجر – خلال فترات من التاريخ العثماني وإبّان الاحتلال الايطالي – إلى البلدان المجاورة في المنطقة العربية والأفريقية. والعائلة التي ينحدر منها "يوسف القويري" هي من تلك العائلات التي استقر بعضٌ منها في مدن وأرياف مصر.

وبعد الاستقلال سنة1951 م شهدت ليبيا موجة عودة للعديد من الأسر المهاجرة، وكانت عائلة القويري قد عاد بعض أبنائها، ومن بين هؤلاء"يوسف القويري" الذي عاد إلى ليبيا تحت ضغط ظروف سياسية في البلد الذي نشأ وترعرع فيه.

○ يقول القويري:

كانت العودة إلى الوطن عام 1957م، ولم يكن "الزيت القذر" – أعني النفط – قد ظهر بعد.

ويعزو القويري عودته إلى عاملين:

المضايقات التي قام بها النظام الجديد في مصر ضد اليساريين واليمينيين على

حَدٍّ سَواء، ثم الحافز "الرومانطيقي" المتمثِّل في حكايات عجائز العائلة عن "الفردوس المفقود" أيّ ليبيا!.

وحتى تاريخ إعداد هذا الكتاب (2016م) يكون القويري قد أمضى تسعة وخمسين عاماً في محطة حياته الثانية (ليبيا).

واتسم عَقد الخمسينيات في ليبيا بأنّه فترة هامّة جداً في تاريخ البلاد، فهي التي شهدت أوج النضال الفكري والثقافي والسياسي والإعلامي، وهي التي ازدهرت في أعقاب إعلان استقلال ليبيا سنة 1951م وتتويج "إدريس السنوسي" ملكاً على البلاد.وقد تميَّزت تلك الفترة باتساع النضال من أجل بناء الدولة الجديدة، وسخَّرت تلك الفترة ظروفاً مواتية لظهور الكثير من التنظيمات والأحزاب السياسية التي قادها أبرز رجالات السياسة والنضال آنذلك. وضِمّنَ هذا الخضم جاهدت الصحافة بشكل نشط وفاعل في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية.

○ يقول القويري:

في جزء من الخمسينات التالية للاستقلال كانت هناك جريدة "يومية" عربية واحدة تصدر في طرابلس هي جريدة "طرابلس الغرب" وكان يترأس تحريرها الأستاذ "محمد فخر الدين"، وقد شرعتُ وقتذاك في النشر على صفحاتها، ثم التحقتُ بعد حين للعمل بها.

ومُنذ ذلك التاريخ والحين بدأت رحلة الأستاذ "يوسف القويري" مع الصحافة الليبية، والتي في تقديرنا أنّه من الإجحاف الحديث عن تاريخ الصحافة في ليبيا بمنأى عن "القويري"، فهو يكاد أنْ يكون الوحيد الذي كَتَبَ أو عمل في جُلّ إنْ لم نقل كلّ الصحف التي صدرت منذ الخمسينات وفي المراحل المختلفة التي مرت بها ليبيا إلى يوم السابع عشر من فبراير2011م.

○ يقول القويري:

بعد جريدة "طرابلس الغرب" ومجلة "هنا طرابلس الغرب" الأدبية، عملتُ بجريدة

"فزان" الأسبوعية التي كان يصدرها ويترأس تحريرها الأستاذ "محمد الطشاني" مدير المطبوعات في ولاية فزان، وكتبتُ في جريدة "الليبي" لصاحبها الأستاذ "علي الديب" المحامي، ومجلة "الإذاعة الليبية" التي كان رئيس تحريرها الأستاذ "محمد بشير الهوني" ثم الأستاذ "محمد أبو عامر"، وجريدة "المساء" الليبية، وجريدة"الميدان" الشهيرة لصاحبها ورئيس تحريرها عميد الصحافة الحرة في ليبيا الأستاذ " فاضل المسعودي"، ومجلة "الرّواد" الصادرة عن الدولة، وجريدة "العلم" الليبية وجريدة "الثورة"، وجريدة "الأسبوع الثقافي" وجريدة "الحقيقة" لصاحبها الأستاذ "محمد بشير الهوني"، ومجلة "السؤال" للأستاذ "منصور الأحرش"، ومجلة "الحضارة" لصاحبها الأستاذ "عبدالحميد العبيدي"، ومجلة "المنارة"، وجريدة "الشمس"، وجريدة "الجماهيرية"، وجريدة "الفجر الجديد"، ومجلة "البيت"، وجريدة "أويا"، وصحيفة "قورينا"، ومجلة "نون"، ومجلة "أفق" الأكاديمية التي كان يترأس تحريرها الدكتور جمال الزوي.

كما كان للأستاذ يوسف القويري مساهمات في عدد من الصحف "البرقاوية"، وعدد من الصحف والمجلات التي كانت تصدر بشكل غير منتظم عن بعض المناطق في الدواخل وبعض الهيئات والمؤسسات العامة.

وبعد فبراير 2011م كتب "القويري" في جريدة "فبراير" الرسمية، ومجلة "الثقافة" التي تصدر عن وزارة الثقافة والمجتمع المدني.

وضِمّنَ هذه المرحلة الثانية من حياة "القويري" كانت هناك سنوات أمضاها في أسبانيا والدانمرك والمغرب. ففي سنة 1970م سافر "القويري" في زيارة خاصة عَبْرَ البحر إلى أسبانيا.

- يقول القويري:

كانت رحلة بحرية هادئة إلى ميناء "أليكانتي Alicante" حيث وجدتُ في استقبالي الصديق «رضوان أبو شويشة» الكاتب والرسّام الليبي، وكان بصحبته الرسام

الأمريكي المعروف «نِيلِّي» وهو رجل مُسِن، وقور، قويّ البنية، فارع الطول، حملنا في سيارته سالكاً الطرق الريفية الوحيدة المتاحة التي تمتد عَبْرَ تضاريس وَعِرَة جداً لكنّه كان يقود سيارته بمهارة فائقة.

وقام "القويري" خلال تلك الزيارة القصيرة بالسياحة في عدد من المدن وشاهد العديد من المعالم الثقافية والحضارية كمكتبة "الأوسكريال" في مدريد وقصر الحمراء في غرناطة. وكانت له لقاءات وحوارات مع بعض المثقفين الأسبان، لكنْ أهم ما يذكره من تلك الحوارات هو ذلك الحوار الطويل الذي دار بينه وبين الرسام الأمريكي "نِيلِّي".

◉ يقول القويري:

لقد تحدّثنا طويلاً حول مدارس الرسم في الأندلس وفي أسبانيا عامّة حيث تناولنا أعمال الفنّانَين الكبيرين "سلفادور دالي" ورفيقه "بيكاسو" اللذَيْن كانا محل تنازع بين فرنسا وأسبانيا فكلٌّ من البلدين على حِدَّة يُريد تنسيب أصول الفن ومنتجاته إليه. كما شمل النقاش منطلقات اللوحة ومنطلقات الأدب حيث بدا الفنان "نِيلِّي" متشدداً بشأن الاختلاف أو البون الشاسع بين منطلق الرسّام ومنطلق الأديب.

وكان للقويري خلال هذه الزيارة القصيرة عدَّة مقابلات أجرتها معه الصحف والمحطات الإذاعية هناك.

ولعل هذه الزيارة الخاصة لأسبانيا كان لها بالغ الأثر في تحديد الوجهة التي اختارها "القويري" بعد خروجه من المعتقل السياسي الليبي(الحصان الأسود) سنة 1974م، وتوقيعه عقداً مع وزارة الدولة لشؤون الإعلام والثقافة بشأن تزويد مكتب الوزير بالمقالات الأدبية والإنتاج الثقافي بصورة عامة، إذْ ينصّ العقد على أنْ يحدِّد الأديب البلد التي يرغب الإقامة بها فاختار "القويري" أسبانيا التي أمضى فيها هذه المرة ثلاث سنوات تقريباً.

◎ يقول القويري:

اخترتُ إسبانيا لأنني وجدت فيها المكان المناسب للإقامة، وكان من العوامل المساعدة على ذلك وجود سعادة السفير الأسباني "كارلوس روبِلّس"، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للتعليم. وقد تعرفت عليه عن طريق المسرح ومعهد الموسيقا.

وقد أنتج "القويري" خلال إقامته تلك العديد من الدراسات الأدبية والثقافية التي كان يبعث بها إلى مكتب الوزير وكان البعض منها يُنشر في مجلة "الأسبوع الثقافي".

ومن الأعمال التي أنجزها خلال تلك الفترة دراسة عن "خِنْسُوْ" الإله القمري. يقول الأستاذ يوسف أنّ هذه الدراسة للأسف الشديد لم تُنشر فقد ضاعت.

ومن مقالات تلك الفترة مقالة تحت عنوان "مُدوَّنات ابن جُبير" المنشورة في "الأسبوع الثقافي".

○ يقول القويري :

لقد كتبتُ عن رحلة "ابن جُبير" أثناء بحثي عن موضوع مشترك يجسِّد التواصل بين الشرق والغرب، وإضافة إلى ذلك فإنّ رحلة "ابن جبير" انطلقت من اسبانيا وتعرَّضت السفينة لعاصفة هوجاء وصادف ذلك وجود الملك "غِلْيُوم الثاني" — أحد ملوك إيطاليا — في عُرض البحر فعرف أنّ هناك سفينة على وشك الغرق. ومعلوم عن مواثيق الفروسية أنّ الفارس يُسارع إلى نجدة المستغيث، فأنقذ الملك السفينة — وِفْقَ نَصّ ابن جُبير — التي كانت تضم حجيجاً ومنهم الفقيه والشاعر والمؤرخ "ابن جُبير". وقال الملك لمن كانوا في السفينة: فليعبد كلٌّ واحد منكم رَبَّه حسب ديانته، وسوف نُصْلِح لكم السفينة ثم إذهبوا بعدها إلى حيث ما تريدون.

قال ابنُ جُبير في مدوَّناته ما معناه بكلّ وضوح إنّ الحرب الصليبية هي حرب بين القلاع وليس للناس فيها أيّ مصلحة أوصلة.

◎ ويضيف القويري:

قال ابن جُبير في مدوَّناته ما معناه بكلّ وضوح إنّ الحرب الصليبية هي حرب بين القلاع وليس للناس فيها أيّ مصلحة أوصلة.

والتقى "القويري" أثناء إقامته في أسبانيا بمجموعة من الأدباء الأسبان وفي مقدمتهم الشاعر الأندلسي الكبير "جيفارا لادُورَن".

أهم مؤلفات القويري:

صدر للأستاذ "يوسف القويري" عدد من الكتب والمؤلفات، ومعروف عنه أنّه من بين المُقلِّين في إنتاجه الأدبي من حيث الإصدارات المطبوعة الخاصة به، ولكنّه أكثرهم كتابة للمقالة الأدبية، فهو بدون منازع أفضل من يكتب المقالة الأدبية في ليبيا ويُجيد فنونها.

كان أولّ كتاب صدر له بعنوان " **الكلمات التي تقاتل**" عن دار المصراتي للنشر سنة 1969م في العهد الملكي، ثم كتاب "من مفكرة رجل لم يولد" في ثلاث طبعات، كانت الطبعة الأولى سنة 1970 م عن دار مكتبة الفكر الليبية للنشر، تلتها الطبعة الثانية عن الدار العربية للكتاب بتونس، ثم الطبعة الثالثة عن دار الرواد الليبية ودار الجيل اللبنانية. أمّا كتابه الثالث فكان بعنوان "خيوط رفيعة" عن دائرة التأليف والترجمة والنشر التابعة للدولة سنة 1971م. ثم صدر كتابه الرابع "في الأدب والحياة" طبعة أولى سنة 1973م عن دار الكتاب العربي "الليبية" للنشر والتوزيع لصاحبها الأستاذ "مصطفى المجعوك"، والطبعة الثانية عن الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، والكتاب الخامس " قطرات من الحبر" صدرت طبعته الأولى سنة 1983 عن الدار العربية للكتاب، وطبعته الثانية عن الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان. والكتاب السادس "على مرمى البصر"، صدرت طبعته الأولى سنة 1976 م عن الدار العربية للكتاب، وطبعته الثانية سنة 1983م عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، والكتاب السابع "تثاؤب الشرق" وصدر سنة 2006م عن الإدارة العامة للمطبوعات والنشر. والكتاب الثامن "مدخل إلى قضية المرأة وفصول أخرى" وصدر "الإدارة العامة للمطبوعات والنشر" سنة 2006م والكتاب التاسع مسرحية "القادمون"

وصدرت طبعتة الأولى سنة 2009م عن الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، ثم صدرت الطبعة الثانية المنقَّحة عن وزارة الثقافة سنة 2013م. والكتاب العاشر" عصر النهضة"، صادر أيضاً عن وزارة الثقافة سنة 2013م.

وهناك مجموعة من الكتب التي يقول عنها الأستاذ "يوسف القويري" أنّها لم تشهد النور بسبب ظروف كثيرة خلال العقود الأربعة الماضية، ومن هذه الكتب: "أوراق في المهب" و"رذاذ الحبر" و "بقايا الأرق" و"النبراس والأجيال"، و"نَثار المطبعة" و"بذور القلق" وغيرها.

القويري وأنا والبحر [1]*

رحلة التسعة وخمسين عاماً

جميل جداً أنّ يجلس الإنسان بمقربة من شاطئ البحر حيث للبحر دلالات ومعانٍ كثيرة من حيث العمق والاتساع والمعنى، والخطورة، والأمان، ومن حيث العديد من النواحي، فالبحر شكَّلَ هاجساً لدى الفلاسفة والشعراء والأدباء والمحبين والخائفين. جميل أنْ يجلس المرء قُرْبَ البحر وأنْ يكون إلى جانبه أديب كبير مثل الأستاذ "يوسف القويري" ليتبادل الحديث معه حول ما يعنيه البحر من معانٍ ودلالات مختلفة..

الأستاذ "يوسف القويري" يعرفه كثير من المهتمين اسماً ومضموناً ولكنّ الأغلبية منهم لا يعرفونه شكلاً، فقد يقف أو يمر بجانبك دون أنْ تشعر أنّك رأيت أو عرفتَ هذا الرجل. إنّه دائم الحركة والسير على القدمين، وهو في ذلك حالة خاصة، تراه دائما يحتضن حقيبته السوداء الملآنَة بالأوراق التي تحمل مختارات ممّا فرغَ عادةً من قراءاته، وهو في ذلك قارئ نَهِم، وكذلك ما سَجَّله من آراء تشكِّل موضوعات يخطط للكتابة فيها، ولا تجد فيها – كما في حقائب الكثير من حَمَلَة الحقائب –

1 *مقالة تم نشرها بصحيفة الشط في أحد أعدادها الصادرة سنة 2008م، وهي المقالة التي كانت مدخلاً للتفكير في إجراء حوارات متواصلة مع الأستاذ يوسف القويري، مادة هذا الكتاب.

أي أوراق طلبات خاصة جاهزة أو شكاوى..الخ. وإنك لا تعرف كيف تلقاه فالمسألة تعتمد غالباً المصادفة. وإذا ما أبرمت موعداً معه فإنك أمام رجل من أكثر الرجال احتراماً لمواعيده، فهو دقيق جداً في هذه المسالة، وإذا ما حدث ورغب في تغيير مواعيده معك لأيّ من الأسباب يبادرك باتصال هاتفي معتذراً.

أكون محظوظاً عندما التقي الأستاذ يوسف مصادفة لأننا إثْر ذلك نتفق دَوْماً على اللقاء، وتكون اللقاءات متتالية حيث كلّ موعد يولِّد موعداً آخر لا يرغب أحدنا في وضع نهاية للحديث الذي يكون دائما في أعماق المعرفة والآداب والثقافة..

أثناء زيارتي لصديق في أحد مراكز الأدب والثقافة التقيت الأستاذ "يوسف" وكنت لم أره منذ شهور، فنحن عندما لا نتواعد يكون ذلك غالباً بسبب أسفاري التي هي كثيرة ومفاجئة.

قلتُ: يا محاسن الصُدَف.

قال: سألتُ عنك أكثر من مرَّة وعلمتُ أنك مسافر.

قلتُ: نعم!..إذَنْ ما رأيك أنْ نلتقي؟

قال: متى وأين؟

قلتُ: هل يناسبك اليوم، مع المغرب، فَلْنَقُلْ الثامنة، في منزلنا المتواضع؟.

قال: وهو كذلك.

كنتُ أريد أنْ ألتقي الأستاذ يوسف لأسجِّل انطباعاً ثقافياً له عن موضوع مُعيَّن لأحد الصحف التي أكتبُ لها ضِمْنَ مجموعة من الانطباعات لعددٍ من أدبائنا وكتّابنا في ذلك الموضوع.

وبالفعل قبل الزمن المحدد بربع ساعة دَقَ جرس الباب وكان الزائر الأستاذ "يوسف".

- مرحباً .. تفضّل. (هكذا قال أصغر أبنائي وهو يستقبل الأستاذ يوسف).. تفضّل إلى"الصالون"، الوالد موجود بالداخل.

– متشكِّر..(يقولها الأستاذ يوسف عادة وهو ينزع حذاءه ويخفض رأسه إلى أسفل غاضاً البصر احتراماً وتأدبا).

وأسرعت إليه مرحِّباً..

وبعد أنْ ارتشفنا القهوة وتبادلنا حديث المجاملة المألوف، وكشأن الباحث عن المادة، الذي لا يرغب في إضاعة أيَّة سانحة أحضرتُ أدواتي من القرطاس والقلم ودوَّنتُ انطباعاً جميلاً رائعاً عَبَّرّ عنه الأستاذ يوسف في الموضوع المُثار.

بعدما أكملنا قلتُ: ما رأيك أستاذ يوسف في جولة نستنشق فيها الهواء ونطلق العِنَان للبصر كي يتأمل جمال طرابلس البهيّ الفتّان، فهي ليلاً تُظهِر حليها ومفاتنها..

فقال وهو يطبع على مُحيّاه ابتسامةً عريضة: فكرة رائعة..

وهكذا ودونما تخطيط أو لعلها عوامل الجذب إلى الملاذ الوحيد الذي تحدده وجهتك وأنت تبحث عن مكان تذهب إليه في مدينة طرابلس والطقس لا يزال صيفاً، وجدتني أقف بالسيارة عند شاطئ البحر، وهناك على امتداد طريق الشط ينتشر الناس أفراداً ومثنى وجماعات في جوقات متنوعة ومتباينة..البعض يجلس على المقاهي.. والبعض عند "الكورنيش" يجلس على حافة الأسوار، أو في سياراته، وآخرون على الصخور الملامسة للمياه. أُناسٌ ينفقون الوقت في أحاديث "النميمة"، وأناس يحْيون الوقت في حديث الذكريات.. وأخرون يعيشون وَهْمَ الحب والعاطفة.. فعلى شاطئ البحر تتنوع الحياة.

"هيا بنا يا أستاذ يوسف نجلس على مقربة من الشاطئ، فقد يوحي إليك البحر بمؤلفٍ جديد". (قلت ذلك وأنا أغادر السيارة ممعناً البصر نحو امتداد مياه البحر أستنشقُ نسيمه بعمق شديد).

وبينما نحن جلوس نتحدث – هنا وهناك – شدَّني مَدُّ البحر وجَزْره وقلت في نفسي: لماذا لا أكتشف أغوار هذا البحر في أعماق الأستاذ يوسف القويري وهو بجانبي؟ نعم هي فرصة. فالتفت إليه قائلاً: أستاذ يوسف.. هل يشكِّل البحر لديك انطباعاً خاصاً ؟!

أجابني وهو ينظر ملياً نحو امتداد البحر..قال: في الواقع لا أدري إنْ كان انطباعي الخاص عن البحر هو انطباع شخصي أو موضوعي. إنّ الصحراء والبحر من المتعذر جداً أنْ يكونا محليَّين حتى الأميال البحرية المُسمّاة بالمياه الإقليمية في نطاق السيادة الوطنية التي تم إقرارها تبدو مغايرة لمعنى المحليَّة. إنّ البحر عالمي وكَوْنِي.. وكذلك الصحراء، ولست أدري لماذا يتملّكني هذا الشعور بأنّ البحر والصحراء ليس لهما أيّة صفة محلية فالبحر أشمل وأعرض من أنْ يكون طيفاً سائلاً ليابسة أيّ بلد من البلدان ..إنّه كيان عالمي، والصحراء مثلها ..ليس لأننا نريد الدخول في "دهاليز" سياسية ولكنّ لأنّ هذا هو انطباعي الخاص لا أكثر ولا أقل.

قلت: للبحر معانٍ عميقة، فالبحر فيه عنصر العمق وهذا له دلالات، وفي البحر صور لمختلف أنواع الحياة؛ الأسماك، النباتات البحرية، وغير ذلك، إنّه عالم آخر، عالم نجهله رغم محاولات الإنسان قدر الإمكان اكتشافه.. فما الذي ينتاب الإنسان وهو يجلس قرب البحر؟ بالنسبة لي شخصياً البحر يشكّل نوعاً من المعاني العميقة، نوعاً من اتساع الأفق، ورغم أنّ الأفق علو والبحر امتداد، إلّا أنني أجد فيه شيئاً من عمق المعاني، وفي ذات الوقت فالبحر يشكل لي هاجساً من الخوف، فأنا أخاف البحر بل أرهبه.. فكيف تجد هذه الانطباعات مكانها عند الأستاذ يوسف؟!

قال متنهداً: قد يعود هذا بشكل من الأشكال إلى ذكريات قديمة، أو أنك تريد القول أنّ لديك تخوُّف كـ"فوبيا" الارتفاع. و"فوبيا" الأماكن الضيقة. لماذا تشعر إزاء البحر برهبة ؟ فيما أظن أنّ هذا الأمر أو هذا الانطباع هو انطباع شخص حسّاس ورقيق الشعور وقويّ المخيلة. وقبل أنْ أستطرد الحديث عن عالمية وكونية البحر يجب الإشارة إلى أنّ العلم المعاصر أضاء أعماق وقيعان كلّ البحار والمحيطات وغاص في تضاريس تلك القيعان المعقَّدة وهو في طريقه إلى حَصْرٍ شامل وتامّ لجميع الكائنات البحرية.. وأعود للقول بأنّه لا ينبغي أنْ ننسى كم ميلاً بحرياً تمتد المياه التي تكون في حوزتنا أو حوزة الدول المُطلّة على البحار وِفْقَ الاتفاقيات الدولية ؟

قلتُ: حسب معايير القانون الدولي هي ثلاثة أميال، وفي بعض الحالات إثنا عشر ميلاً..

قال: إذنّ مازلنا بعيدين عن عُرْضِ البحر أو – بالأحرى – بعيدين عن العمق. ويمكن – من جهة أخرى – أنّ تجد هذا العمق في اليابسة، أو تجده في البحر وهذه مسألة فيها قولان.

قلتُ: إذا بدأ الإنسان ينظر إلى البحر من حيث الامتداد فالبحر يتحول إلى محيط، ويتولد بذلك الشعور بالرهبة، فالإنسان دائماً - في تقديري - يخشى الأشياء التي لا نهاية لها، فعندما يقف أمام البحر لا يستطيع أنْ يرى النهاية، وهذه الحالة تشكل لدى الإنسان العادي هذا النوع من الرهبة.

قال: لكنّك أيضاً تكون أمام انطباع معرفي آخر، هي حقاً معرفة مختلطة بالشعور ولكنّها واضحة جداً في الذهن. وهناك تصور دقيق بأنّ البحر في هذا الاتجاه أو ذاك ينتهي بشواطئ أخرى، وأنه بالتأكيد محدود.. ونحن لسنا في العصر الحجري القديم بحيث ندرك البحر كمتاهة أو كما سَمَّى الأسلاف القُدامى المحيط "الأقيانوس" بأنّه بحر الظُلمات!. إنّ البحر مُضاء بالعصر الحديث، عصر النهضة العالمية، إنه مضاء تماماً.

بعد لحظة صمت قصيرة أسترسل القويري: أعجبتني إشارتكم إلى "العمق" في البحر، فقد كان "السيرافي" – وهو أحد علماء اللغة – يصف "سيبويه" بأنه بحر.. وواضح أنّ استعارة "السيرافي" تعني العمق.

قلتُ: هذا هو المعنى .. هذا ما أريد التحدث عنه "المعنى» والدلالات.. فعندما يُوصف «سِيبَوِيه» أو أيّ إنسان بأنّه بحر فهي للدلالة على أنّ هذا الإنسان – كما البحر – مليء بالثروات، فاللؤلؤ في البحر، والمرجان في البحر، الأسماك في البحر. وأذكر أنّ الشاعر المصري «حافظ إبراهيم» عندما أراد التعبير عن عظمة وغِنى اللغة العربية قال:

أنا البحر في أحشائه الدُّرُ كامنٌ:: فهل ساءلوا الغوَّاصَ عن صَدَفاتِه

فكان ذلك أصدق تشبيه للغة العربية وكم هي غنية بالمفردات والمعاني فرأى أنْ يُشَبِّه

ذلك بالبحر، وكان تشبيهاً جميلاً. فالإنسان ومُنذ القِدم وإلى وقتنا الحالي يجد في البحر مثلاً ونموذجاً.

قال: وكان الحُبُّ مُنهَكاً تماما بالنسبة لـ"عبدالحليم حافظ" فردَّد في الأغنية مع كلمات الشاعر الكبير نزار قباني: لو أنِّي أَعْرِفُ أنّ البحرَ عميقٌ جداً ما أبحرتُ.

قلتُ: هذا كلام جميل وهذا ما يحرِّك الدلالات.. وحتى في أوزان الشعر مثلاً هناك مصطلح "بحور الشعر". إذنْ للبحر دلالات ومعانٍ عميقة لصيقة بالإنسان.. ويبدو لي أنّ البحر يشكِّل جزءاً من حياة الإنسان سواء كان قريباً أو بعيداً عنه.

قال: وماذا عن أهل الواحات البعيدة عن البحر؟

قلتُ: هناك بحر الرمال.. فالبحر ـ عندي ـ مصطلح، وهو من الإبحار. لماذا سُميّ بحراً؟ هل نتيجة للماء؟! أم نتيجة للإبحار بمعنى العمق والامتداد. فالإبحار ليس فقط بالسفن، فالإبحار قد يُقصد به التعمُّق وخوض غمار المسافات البعيدة.. فيُقال إنّ فلاناً أبحر بأفكاره، أيْ تعمق في التفكير، وحتى العرب الذين وضعوا بحور الشعر كانوا أبعد ما يكون عن البحر.

قال: نعم. الإبحار للسَّفَر والتَّبَحُّر للتَعَمُّق. وكلتا الكلمتين على ارتباط بالبحر. فالإبحار ليس بالسفن فقط، لكنْ تلك كِنايات واستعارات وتشبيهات تُوضع في إطار المَجازِ بأنواعه. ولُغَوِيّاً: الاشتقاق أو الصَّرْفُ تالٍ للمصدر.

قلتُ: يبدو لي أنّ التسمية العربية جاءت للدلالة على العمق والاتساع، فيقال أنّ هذا بحر لأنّهم لم يكونوا يدركون أنْ له نهاية. فالحدود التي تكلمتُ عنها في بداية الحديث عندما قلتُ إنني أخاف من اللانهاية، فاللانهاية هنا تعبير مّجازِي، وكذلك في القديم كان العرب لا يدركون كثيراً ماذا وراء البحر.

قال: لماذا «الفوبيا» أو الرهبة ؟، فـ«الفوبيا» كما ترون ليست تعبيراً دقيقاً لمثل هذا الموقف. هذه الرهبة قد نشعر بها عندما ننظر إلى متَّسع آخر حيث النجوم والكون. وعلى أيّ حال فالأرض كوكب مائي ونسبة الماء إلى اليابسة تعكس تفوقاً للماء.

قلت: نعم فالماء يشكل ٪71 من مساحة كوكب الأرض البالغة أكثر من 510 مليون كم². وأمام هذا الامتداد العظيم فإنَّ الرهبة عندي أمام البحر هي ليست مسألة «فوبيا»، فهذه حالة مرضية، وتعكس حالة خوف وذُعر من شيء، وللرهبة دلالات تختلف عن «الفوبيا» باعتبار الفوبيا تعبير عن خوف إلى درجة الفزع المطلق، لكنني مثلاً أرهب البحر لعظمته وعمقه، وليس القصد عمقه السّفلي فقط، وإنّما العمق في الدلالات. إنني أعشق البحر لكنني – في ذات الوقت – أخشاه.

قال: نعم. إنّه انعكاس أيضاً لشيء عظيم نجهله ولا ندريه في هذه المعاني القريبة، بين الجزء والكلّ، فهذا الاتساع وهذا المدى فيه عظمة..

قلتُ: البحر عظمة ومهما كانت الرؤى فهو ذو دلالات ومعانٍ كثيرة، فالبحر يمكن أنْ يكون دلالة للخير والسلام، فلولا البحر لكان جزء كبير من البشر قد انتهى، فهو يمدّنا بالحياة، وحتى حياة الأرض واستمرارها مُرتهن بالبحر، فمياه البحر تطفئ لهيب الأرض المتأجج وتُساهم في استقرارها.

قال: تعزيزاً لهذا الكلام تُفيد المؤشرات العامة للعِلم الحديث إلى أنّه لم تكن ثمّة حياة على اليابسة في سحيق الزمان، وأنّ الحياة بدأت في مياه البحر.

قلتُ: بمعنى العودة إلى "داروين " و نظريته في "النشوء والارتقاء" وإشارته إلى أنّ الحياة بدأت في البحر. هذه معاني وإشارات عميقة تلك التي تفترض أنّ الحياة بدأت في البحر.

قال: في الواقع هذه مؤشرات عامّة في العلم. أمّا "داروين" فلم يشتغل بنشوء الحياة في نظريته عن النشوء والارتقاء أو نظرية الطوُّر بل عَكَفَ على نشوء الأنواع واختلافاتها التطوُّريَّة ميدانياً ومنهجيّاً. وعنوان كتابه الشهير "أصل الأنواع" دليل على ذلك. ومن جهة أخرى لم يوفر لنا إجابات العلم إجابة حاسمة أو قول فصل بشأن نُشوء الحياة داخل المياه، لكنّ التطوّر العضوي وتطوّر الأحياء والخط التطوري فيؤكدون أنه بدأ في البحر، ويلاحظون أنّ التحورات أو التكيفات شديدة التنوع والتعقيد كانت بدايتها

في المراوحة بين اليابسة والماء، لكنّ مسألة نشوء الحياة فهذا ما لم يتمّ الجزم بشأنه. فهل كان البحر بالفعل أصل الحياة والنشأة والانبثاق الأول؟ هذه المسألة لم تحسم بعد. فنحن نجد أشكالاً مجهرية ليست بجراثيم، كنبات الخميرة وهو نبات مجهري من خلية واحدة موجود في الهواء، ولا يوجد إلا في الهواء، ويسقط على سُكَّريّات الفواكه ويقوم بكسر سلاسلها وتكون من نواتجه التَّخَمُّر أو "العَطَنُ" في الفواكه. فليس هناك حسم بشأن انبثاق الحياة، وجهود العِلم طوال القرون تشير إلى أنّ الحياة كما نعرفها كانت هي تلك المراوحة الجبارة بين اليابسة والماء والتنوُّع الهائل.

قلت: طبعاً. هذه مسائل جدلية، ومصدر الحياة قد يكون البحر، وإذا تفحصنا الرؤية الدينية فهناك الآية الواردة في القرآن الكريم "وجعلنا من الماء كلّ شيء حَيّ"، دلالة دون شك عميقة وتحتاج إلى بحث ودراسة. وكافّة المعطيات تؤكّد أنّ مصدر الحياة هو الماء، ولولا الماء لانعدمت الحياة، سواء حياة البشر أو حياة الأرض في حَدّ ذاتها، فكلّ المخلوقات الحيَّة تعتمد على الماء.

قال: هذا صحيح.

قلتُ: الآن وبعد هذا السِّجال هل يستطيع الإنسان أنْ يسرح ويُبحر بمخيلته ليدرك خفايا هذا الخضم الجبار؟. لا شك أنّ هناك أشياء عظيمة وحركة دءوبة، مَدّ وجَزْر.. أنظر إلى الأمواج كيف تتلاطم في حركة وتواصل، وهذا دليل على أنّ البحر حياة.

تنوع الحديث بيننا وطال عن البحر.. أنا أعيش فيه دنيا الفلسفة والخيال، والأستاذ «يوسف» يعيدني إلى الواقعية العلمية وكأنّه لا يريدني أنْ أسرح بعيداً في موضوع يمتد عمقه وأتساعه عمقَ واتساع ماهيته فنُبحر كلانا في فلك بعيد يطول فيه سَفَرُ الحديث فنسبح بين أمواج العِلم والفلسفة والأدب ويكون الوصول إلى مرافئ الإشباع المعرفي محفوف بالصعاب فقررنا، وعقارب الساعة تُقارِب الصباح أنْ نعود أدراجنا ونحن نستمع إلى مذياع السيارة وعَبْرَه تُبث أغنيةُ للسيدة فيروز «شايف البحر شو كبير..» . انتهت الأغنية. وحيث سُكنى الأستاذ «يوسف» توقّفتُ بالسيارة بعدما اتفقنا على موعد قريب.

حديث في الصحافة

الصحافة أو كما يحلو للبعض أن يسميها "مهنة المتاعب"، هي المرتكز الأساسي لصنع الإعلاميين في مختلف مجالاتهم، فالإعلام وقد تطور مفهومه بتطور الوقائع والأحداث والتي لعب فيها – أي الإعلام – الدور الرئيسي في إحداثها – أي الوقائع والأحداث – فلم يعد الإعلام ينحصر في مفهومه الضيق في مجرد الإخبار أو نقل المعلومة "Information"، بل تعدى ذلك بمراحل عديدة ليصبح منظومة متكاملة للاتصال والتواصل"Communications".

فالإعلام مِهنية وتخصص يقوم على أسس علمية تُدرَّس وتُتَعلَّم ويُتقيّد بها. وقد عُرف عن الإعلام أنّه السلطة الرابعة Fourth Estate، ولكن ليس في هذا المصطلح أيّ دلالة على أنه السلطة التي توازي السلطات الثلاث لـ"مونتسيكيو" – أي التشريعية والتنفيذية والقضائية – وإنما القول بأنها السلطة الرابعة إشارة إلى أنها القوة التي تنبع من وتؤثر في الشعب دون الحاجة إلى قرارات أو مجادلات. إنّ مدرسة الإعلام الأولى هي "الصحافة"، ومع تطور قنوات الصحافة حيث أصبحت تُقدم من خلال الوسائط السمعية والبصرية وعبر تقنيات شبكات الإنترنت، حدثت هزة منهجية في مفهوم العمل الصحفي أو الإعلامي.

ولما كانت الصحافة هي المدرسة الأولى كونها تحتاج إلى مهارات عالية في إتقانها، فهي – أيّ الكتابة – تقابلها القراءة، فكي تُقدم مادة يتشوق لها القارئ فإنّك نحتاج إلى الكثير من العطاء بعكس الخطابات المحكية.

والصحافة في بلادنا قد شهدت أوج انتعاشها من الناحية المهنية إبّان فترة الاستقلال والنضال الوطني خلال مراحل الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي ثم ما لبثت أنْ شهدت فترات من الركود والانحسار خلال العقود الثلاث الآخيرة من القرن الماضي والعقد الأول لهذا القرن ولاتزال، فقد رأيت وأنني أتحاور مع الأستاذ يوسف القويري – باعتباره قد عاصر كافة مراحل نشأة وتطور الصحافة في ليبيا – أنْ أتحدث معه في هذا الموضوع محلياً.

قلتُ: كيف يرى الأستاذ يوسف مسألة الصحافة..كيف كانت وكيف غدت؟

قال: الصحافة في الخمسينات والستينات إبّان العهد الملكي ليست هي الصحافة التي تلت ذلك حتى الآن، مثلاً بالنسبة للأستاذ "فاضل المسعودي"، والأساتذة "محمد بشير الهوني"، و"رشاد الهوني" وغيرهم، تلك الكوكبة كانت موجودة قبل 1969م. إنّ "فاضل المسعودي" صديقي وهو رجل نضال سياسي وفكري، وعندما أسَّسَ جريدة "الميدان" أسَّسَها وِفْق توازن دقيق جداً بين الجانب التجاري والجانب التنويري والمهني أيضاً، وبالمِثْل بقية الكوكبة. ولا تبتعد جريدة "الرائد" للأستاذ "عبد القادر أبوهروس" وكذلك جريدة "اليوم" للأستاذ "عبد الرحمن الشاطر" وغيرهما عن النطاق المشار إليه. فالصحف في الماضي مختلفة عن الصحف المعاصرة، بل أنّ علاقات الكُتّاب بها تختلف اختلافاً كبيراً حتى داخل المؤسسة الحكومية نفسها، ففي جريدة "طرابلس الغرب" نجد علاقات حميمية وإنسانية، فكان رئيس تحرير "طرابلس الغرب" الأستاذ "محمد فخرالدين" يجيء بسيارته الطاوية ليحمل مقالاتنا وسط جو إنساني محض، ولم يكن ذلك محصوراً في المؤسسات الأهلية فقط بل كانت صحف الحكومة أيضا بعيدة عن أيّ

تشنجات. وبالنسبة لهيئة كبيرة مثل مؤسسة الصحافة في فترة ما بعد 1969 حيث تم إسناد إدارتها إلى إطارات وطنية ربما يكون هذا نفس رأيها في الموضوع، ولكنْ كيف لها أنْ تعالج الموقف الذي أصبح جزءاً من تقاليد ظرف تاريخي استمر لفترة طويلة حيث جريدة واحدة يحشد فيها مئة شخص يعملون في التحرير، كيف يكون ذلك؟! مئة شخص وهو عدد غير موجود حتى في صحيفة أخبار اليوم! شيء غير معقول على وجه الإطلاق. أمّا جريدة طرابلس الغرب فلم يكن فيها نهائياً استعلامات، كان القادم إلى تلك الصحيفة يجد الباب مفتوحاً باستمرار ويجد مكتب الأستاذ "الشاوش" رحمة الله عليه، ومكتب رئيس التحرير ومكتب "عبدالهادي الفيتوري" — المشرف على القسم الرياضي — دون عناء، ولم يتجاوز عدد المشتغلين في تحرير تلك الجريدة اليومية خمسة أشخاص. والكُتاب يأتون ويتناقشون، وكان عددهم معدوداً على الأصابع سواء كانوا قادمين من بنغازي أو سبها. وهكذا كانت الصحافة مختلفة اختلافاً كبيراً عن الصحافة الحالية، وربما يعود ذلك إلى التوسُّع أو قد يعود إلى الاضطراب أيضاً، وتحديد المسألة ينطوي على إحراج.

قلتُ: أنا مازلت أبحث عن الصحف في ذلك الوقت، أريد الصحف التي ارتبط بها الأستاذ يوسف سواء بالكتابة أو الممارسة المهنية؟

قال: لقد انقطعتُ لفترة طويلة عن العمل الصحفي نفسه، ولكنّ العمل الصحفي استغرق جزءاً كبيراً من الوقت إلّا أنه تَمَّ وسط ظروف تقنية لم تكن متطورة كثيراً، فأنا مثلاً في فترة من الفترات اهتممتُ اهتماماً شديداً واضطرارياً بالإخراج، حيث لم يكن لدينا مُخرج فكنت أقوم بإخراج الجريدة ، وينعكس ذلك على جريدة "المساء" حيث يمكن أنْ نرى الفارق في الإخراج الذي شمل إضافة إلى جريدة "المساء" جريدة "الحقيقة" وجريدة "الميدان" وجريدة "فزان" دون تسلسل زمني. وكانت الإمكانيات بسيطة جداً ومع ذلك

كان بالمقدور إخراج الصحف على نحو جيد نسبياً. والغريب أنّ الكتب التي صدرت خلال الفترة الممتدة ما بين(1969-2007) عن الإخراج الصحفي في ليبيا لم تتناول بأمانة كل هذه الصحف القديمة التي ساهمت بقسط وافر في الإخراج. وجزء كبير من الإخراج التالي لذلك ظَلَّ مجرد ألوان ملطَّخة متنافرة ليس فيها أيّ ذوق، وكنا نجد الخبر بذات الصيغة والمصدر حيث لا يتراءى سوى مجهود وكالة الأنباء الرسمية فتنطمس بذلك الفروق بين صحيفة وأخرى فكأنّهم نُسَخٌ من صحيفة واحدة.

قلتُ: إسهاماتك إذَنْ لم تكن في الكتابة فقط بل تعدَّت ذلك إلى الإخراج؟ فما هي أدوات الإخراج في ذلك الوقت، هل كان على "الماكِتْ"؟

قال: كان أمامنا (الرصاص) بمعنى "اللينوتيب" وحروف الخشب في الـ"مونوتيب" والـ"براويز" الجاهزة ونحن نتصرَّف، وكان "الكليشي جراف" تقنية ذات مزايا في ذلك الزمان لمن يجيد التعامل معها.

قلتُ: إنّه وبحكم طبيعة المرحلة – سواء كان في ليبيا أو غيرها – كلما كثُرت التقنيات جاء الأداء أقل في المجتمعات التي لا تتواصل أو تتواكب مع تلك التقنيات، فقد زادت التقنيات في أوروبا وبالمقابل زاد تطور العمل الصحفي إلى ما هو أفضل، بينما زيادة التقنيات في المجتمعات العربية، لم تؤد إلى نفس النتائج، ففي أوروبا التقنية تواكب الأداء بينما في منطقتنا نجد أنّ التقنية تسبق وتتفوق على الآداء، كلّ ذلك أثَّر في الأداء المتردي للصحافة، لكنْ إذا أردنا تصنيف الصحفي الذي يعمل في الصحافة وأردنا القول إنّ هناك المحرِّر الإخباري والمحلِّل والمحقق وكاتب المقالة – وهو تنوع من الضروري وجوده في الصحيفة – فإننا لا نجد هذا التنوع في الصحف التي لدينا حيث الخلط بين المقالة والتقرير والخبر والتحقيق الصحفي..

قال: هذه "الخلطة" يطلقون عليها إعلام، والتساؤل هو كيف تغيَّرت الصحافة ونَأتْ عن كونها فن وصناعة، وأذكر بهذا الصدد أنّه بعد تأميم الصحافة جاء أحد المسؤولين الإعلاميين يسألني عن أيّما ملاحظات قائلاً لي ما هو

رأيك؟ فقلت إنّ (الصحافة ليست صندوقَ شكاوي)، ومهما كان الهدف نبيلاً لكنّ السِّكَة غير منضبطة، تقولون إنّ الناس الذين يمارسون مهنة أو حرفة من الحِرف أدرى بمشاكل مهنتهم من الصحفي نفسه وبوسعهم التعبير عنها أكثر من الصحفي، فهل هذا صحيح؟ صحيح إنّه يستطيع التعبير بأيّ صيغة من الصِّيَغ عن مشاكله في مؤتمر شعبي، في برلمان، أو في "مربوعة"، لكنّ نقل ذلك إلى مستوى العمل الصحفي مستحيل، فالصحافة صرح قائم بذاته، وبالتالي قد تكون هناك مشكلة من المشاكل تخصّ فئة أو حرفة معيَّنة تبدو في نظر أصحابها ذات أهمية كبيرة جداً لدرجة الطفو على سطح الحياة العامة في حين أنّ تقييم الصحفي للمسألة وخاصة إذا كان صحفياً ومناضلاً سياسياً أو صحفياً يحمل أيديولوجية أو مثقفاً يرى هذه المسألة عاجزة عن الطفو على سطح الحياة العامة بحيث تصبح مشكلة الساعة.

كان هناك مئات الأشخاص ومعظمهم من خريجي كلية الإعلام — سواء من طرابلس أو برقة أو فزان — ذهبوا إلى أعمال ليس لها علاقة بالصحافة أو — بكلمة أخرى — التخصُّص ، وتركوا الصحافة التي تحولت إلى تكيَّة تضم كلّ من هَبَّ ودَبَّ مِمّا أشاع جواً غريباً ليس له علاقة لا بالمهنة ولا بغيرها.

قلتُ: لقد ركَّزتَ على نقطة مهمة عندما قلتَ إنّه كان هناك نوع من الألفة بين المشتغلين بالصحافة والكتابة ووجود علاقات حميمية بينهم فكان الأداء أفضل بعكس الصحافة المرتجلة التي أصبح عمادها غير مهني. إنني أسأل عن الصحافة لدينا على الأقل في ليبيا أو المنطقة العربية بشكل عام، وألاحظ أنّها لم تعد المهنة التي يمكن معها تحديد العمل الصحفي: كاتب المقالة، المتابع، كاتب التقرير والتحقيق.. إلخ ويكون هناك رغبة للمهنة والتخصص.

قال: نعم، هذا صحيح لدرجة أنّه يمكنك رؤية بائع "كاكاوية" — فول سوداني — وقد تسلَّق منصَّة توجيه اجتماعي أو سياسي أو ما يخطر لك على البال!

ضحكت مطولاً لهذه العبارة التي قالها الأستاذ يوسف بنبرة قلقة وبدت معها مظاهر

الانزعاج على مقاطعه، وهممت واقفاً أنفض بيدي اليمنى ملابسي من آثار الغبار الطفيف الذي غالباً ما يكون منتشراً على المادة الإسمنتية التي نجلس عندها قرب شاطئ البحر، وأمسك بيدي اليسرى يدَ الأستاذ يوسف اليمنى لأعينه على النهوض وقلتُ مازحاً: وعلى ذكر "الكاكاوية".. ما رأيك في "طاسة" شاهي بـ"الكاكاوية"؟! فهناك على امتداد الطريق باعة متجولون يبيعون الشاهي ولكنه باللوز..

نظر إليّ وهو يبتسم دونما تعليق ثم استقلينا السيارة عائدين وكان الجو منعشاً ولطيفاً معطراً بنسيم البحر.

الخلاف والمناظرة

كنتُ أتابع باهتمامٍ بالغ موضوع حوارٍ في أحد البرامج المعروفة بأحد الفضائيات العربية، حيث طبيعة البرنامج حوار يستضيف فيه مقدم البرنامج شخصيتين من اتجاهين مختلفين من حيث وجهات النظر حول الموضوع المطروح، وما لبث الحوار أنْ تحول إلى سباب وعراك يكيل فيه كلٌّ من الضيفين السب والإهانة للضيف الآخر...

قلتُ : كيف يكون الخلاف والمناظرة؟

قال: بالمناقشات التي هي حُرَّة. وتلك المناقشات لن يخوضها "شَتّام" أو "هَجّاء" أو شخص أَهْوَج أو أَجْوَف أو "شوارعي" أو عابر سبيل. فالمناقشات الجادَّة تستلزم عناصر من النخبة السياسيّة أو – بمعنى شامل – تتطلَّب مثقفين مُتعدِّدي الاتجاهات. حينئذٍ تكون فُرص الخلاف والمناظرة أكثر اتساعاً لأنّها مبنيَّة على انتفاء عدم التبعية وتَوَفُّر التباين المثير للجدل المثمر.

قلتُ: تماماً، ويعني هذا أننا نتحدث عن اختلاف ومناظرة وليس عن خلاف ومناظرة. فالاختلاف يمكن أنْ يكون في وجهات النظر بعكس الخلاف الذي يكون من منطلق الانتماءات، فـ"الاختلاف في الرأي لا يُفسد في الودّ قضية".

قال مقاطعاً: يا دكتور، الأزهريون وضعوا النَّص هكذا: "علمُ الخِلاف والمُناظرة ".

قلتُ: إذا قالها الأزهريون فعلينا أنْ نُقِرّ بذلك على خلاف المبدأ ونقول: وهو كذلك لأنّ قائليها هم الأزهريون وكأننا نتناقض مع القول في حد ذاته!.

قال وهو يضحك: إنّ الذي أمامنا مُصطلح أزهري وتعبير له تاريخ.

فقلتُ مقاطعاً: إذاً فنحن نحتاج إلى "الخلاف والمناظرة" في تنمية برامجنا الإعلامية، وفي مناقشاتنا العامّة.. أين في تقديرك احتياجنا إلى "الخلاف والمناظرة"؟

قال وقد بدا متضايقاً: أنت تُدخلني من ثقب الإبرة فأنا لا أخطاب المعنيين، لكنني أتحدَّث بصورة إجمالية. نعم هناك الكثير من المؤسسات الإعلامية تشكو من ضعف الإمكانيات وقِلتها، وتلك المؤسسات في حاجة إلى ضخ المال والتأهيل الكامل للمشتغلين فيها، وكذلك إعطاء مُتَّجَهات مستقلة عن الشارع كي لا تكون هناك مضايقات، فمن الضروري عودة النظام الإداري للدولة، وحبذا لو عادت الوزارات. أنا أرى من المهم فصل الدولة عن الشارع، بمعنى أنْ تظلّ الدولة تنظيم غير قابل للاختراق العشوائي من قِبل شكل غير مُنَظَّم. فالناس لم يولدوا بحِس غريزي للتقدُّم ، بل لا بد أنْ يَنْصَقِلَ العَوام من خلال تجربة، والتجربة للأسف لن تُتاح ولا ينبغي أنْ تتاح في الظرف الراهن، وهي تجربة مُشَذَّبَة تاريخياً عَبْرَ منظّمات وأحزاب سياسية، وهذه أشياء غير موجودة عندنا.

قلتُ: نحن لا نوجِّه خطاباً لأحد، لكننا نناقش مسألة "الخلاف والمناظرة" التي هي في واقع الأمر موضوع التطور والتنمية، الذي هو في حد ذاته لا يمكن أنْ يتم بدون الخلاف والمناظرة. حتى تطور الفكر الإنساني لم يكن ليتم لولا الفكرة ونقيضها، فلا بد أنْ يكون هناك خلاف ومناظرة ما دمنا نستهدف البناء، فنحن لا نتحدث إذنْ عن الخلاف المدمِّر أو "العدائية"، لكنه خلاف — سواء اخترت أنت أو الأزهريون هذه العبارة — ومن هذا المنطلق، فلا بد أنْ يكون هناك رأي ورأي آخر، وهذه هي سمة الحوار، فالحوار لا يعني "الصراع"، فلاعبو كُرة القَدَم يتحاورون، وهذه المحاورة

لا بد وأنْ تكون مبنية على "تعارضات"، وقد تؤدي إلى نتائج تُرضي الجميع.. فأصحاب الروح الرياضية العالية عندما يخسرون في مبارياتهم يعملون "شيك هاند"، يتصافحون ويحيّون الفريق الفائز. وقد أعجبني رأيك في هذا الموضوع، فنحن في حاجة إلى الحوار لأنّه أساس البناء، كما أنّ الحوار لا يعني هَزّ الرؤوس بالموافقة وبالإجماع.. فلا بد أنْ يكون هناك "اختلاف" في وجهات النظر والآراء وإلّا فلن يكون ثَمّةَ حوار، ففي الحوار تتقارع الأفكار حتى نصل إلى اتفاق أو نقاط نلتقي حولها وأخرى نختلف في شأنها فنواصل الحوار..

قال: فلنضع معاً بعض العلامات عن الآراء.. إنّ فاقد الشيء – كما يُقال – لا يُعطيه.. فكيف نتوقع من أشخاص جُوف أنّهم سيساعدون أنفسهم أولاً ومن ثّمَّ سيساعدون الطلائع في بناء بلد؟! المسألة في واقع الأمر أنّهم ليسوا مؤهلين للإدلاء بآراء، حيث أنَّ المعيار النموذجي للمناقشات أو "الكلام" إذا صح التعبير هو أنْ يكون المرء شجاعاً جداً، ويقولون له: قل كلمتك. لكنْ ما هي هذه الكلمة؟ هي – في الواقع – "شتيمة" كبيرة أو اتهام بلا ضِفاف!. ولدينا عناصر وطنية مؤهَّلة مِهنيّاً وقانونياً بمقدورها مناقشة هذه الموضوعات مع تقديم الأدلة الدامغة. فكيف يمكن أنْ نستعين في إلقاء إضاءة على مشكلة من المشاكل – سواء اجتماعية أو سياسيّة – بمطالبة عابري السبيل أنْ يضيئوا لنا "السكة" أو ينيروا لنا الطريق فنصبح بذلك "ذيلاً" لهم، في حين يَجْدُر أنْ تتقدَّم الطلائع لانتشال الآخرين وتهيئة ظروف التقدُّم لهم.

الوطن والوطنية

في العادة يُشَكِّلُ الوطن هاجساً لدَى كافة المفكرين والمنشغلين بقضايا الإنسان والأدب والثقافة والقضايا الاجتماعية، ودون شك أنّ لهذا الموضوع تشعبات وزوايا مختلفة فلكلٍّ رؤيته الخاصة التي تتناوله من جانب ما.

وفي أحد لقاءاتي المعتادة مع الأستاذ يوسف أردت أنْ أتعرف على رؤيته الخاصة لهذا الموضوع، وفيما يلي نص الحوار الذي دار بيننا حيث بادرت بالسؤال: كيف يتناول الأستاذ يوسف القويري مفهوم "الوطن" والمواطنة؟

قال: في الواقع إنني حائر ومتردِّد لأسباب سأطرحها فوراً وهي؛ إذا أردتم بالسؤال مفهوم الوطن فذلك يعني مفهوم الوطنية، وبالطبع أنتم لا تقصدون ذلك حيث أنّ الأمر عندئذٍ سينقلنا إلى مضمار آخر هو الاتجاهات الوطنية والقومية ومن ثَمَّ في ماضي الزمن الشعوبية إلى آخر تلك المشاجرات السَّمِجَة حول الجغرافيا والسياسة.

قلتُ (سائلاً): كيف يمكننا أنْ نضع تعريفاً أو تحديداً لهذا المفهوم، الوطن؟

قال: ثَمّة تحديد موضوعي للوطن وهو تحديد خالٍ من أيّ عواطف أو انفعالات أو انحياز أو صِيَغٍ باردة جداً حيث نقول إنّ "الوطن" هو حدود إدارية وسياسية وبالتالي

فهو يعتمد على قاعدة جغرافية. وحينما ننتقل إلى اللغة سنجد أنّ كلمة الوطن كما هو معروف في كثيرٍ من الدوائر المُتعلِّمَة لم يكنْ يحمل المعنى المعاصر الذي نتحدث به وعنه. إنّ الوطن – في إطار اللغة العربية الكلاسيكية – محدود بالملكية القبائلية المَشاعية، فهو الموضع الذي يمكن للقبيلة أنْ تنساب عَبْرَه أو على أديمه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وأنْ تتموضع أحياناً بمنتجعاتها فترحل ثم تعود.. ذلك وطن القبيلة الذي لم يرتبط – أو بالأصح – لم يُفرِز دولة طَوال عصوره السابقة إلا في العصر الحديث مع تقلص البِنية الاقتصادية للقبيلة وانكماشها في ضلع واحد هو الضلع العشائري أو روابط الدم، وفيما عدا ذلك فالقبيلة أصبحت نَمَطَاً للمتاحف، ولم تعد البنية الكاملة للقبيلة بجميع أضلاعها قائمة في أيّ مكان باستثناء بعض الجغرافيا الطاعنة في السن!. هناك سنرى القبائل البدائية الملوَّنة – بالرغم من إعلان نُظُم دولة بالمعنى الحديث في الجغرافيا الوطنية – باقية كما هي لا تُبارح مفهوم الوطن القبائلي بأوضاعه المعرقلة. ومازالت بعض بلدان العالم تعاني من جراء ذلك كما هو الحال في معظم دول أفريقيا السوداء وجزء صغير من آسيا، ومتفرقات أخرى في بحار الكوكب.

قلتُ: إذاً أنت تضع الكلمة أو المصطلح رهن الجغرافيا والتاريخ وروابط الدم..

قال: من المفترض أنْ يكون داخل الوطن أو في تصوّرنا النموذجي له – وِفْقَ علم الاجتماع "sociology" – أنْ يكون هناك جماعة تاريخية ذات روابط، وليس شرطاً أنْ تتحدَّث لغة واحدة.على الأقل كان هذا في ماضي الزمان خارج التبلور الحديث الذي يعود إلى قرون كثيرة سواء بالنسبة لنا أو للآخرين. وبالطبع فإنّ هذا الأمر لم يَمْضِ على نفس المنوال في كلّ البلدان، فثَمّة بلدان أو جماعات تاريخية كانت وظلَّت ذات لغة واحدة، لكنْ لو أردنا تحري الدقة فسوف نلاحظ أنّ تلك اللغة الواحدة قد مرت بمراحل شديدة التباين إلى درجة أنّ لغتها المعاصرة تبدو وكأنها منقطعة الصلة عن اللغة القديمة التي كانت تتحدث بها، فليس شرطاً أنْ تكون هذه الأوطان ذات ركيزة لُغوية واحدة. وواضح أيضاً أن الترجمة الحرفية لكلمة وطن

عن الإنجليزية مثلاً تعني القومية والأمة بحيث تكون الجماعة التاريخية هنا هي الأمة في واقع الأمر، فلا بد أولاً من وجود جماعة تاريخية فنقول عن اليابانيين أمة والصينين كذلك، وربما سنتردد في القول أنّ المصريين "أمة"، وهذا التردد لا يعود إلى عوامل أو أسباب علمية وإنما يعود إلى أسباب أخرى، وقد ورد للتدليل على هذا الأمر في خطاب العرش الذي ألقاه الملك المبجل إدريس السنوسي في إعلان الاستقلال وأستعمل فيه كلمة الأمة الليبية.

قلتُ: ولكن كلمة "أمة" ظهرت من قديم الزمان للدلالة على روابط محددة؟.

قال: كانت الأمة تُسمى في ماضي الزمان "جيل"، جيل الترك، جيل الفرس ولم تكن كلمة أمة مُستخدمة إطلاقاً بدلاً من جيل حتى في منتجات العصر العربي الوسيط وطرأت بكلمة جيل بدورها تغيرات دلالية معروفة.

قلتُ: هذا استعراض جميل ورائع، ولكنني أبحث عن "الوطنية" بمعنى الشعور بالانتماء. فثمة فارق بدأ يلوح في أفق الزمن الحالي بين الوطن الذي يُكسبك مجرد الهوية نتيجة انتمائك إليه بحكم "العِرق" أو القانون، وبين الوطن ألذي يمنحك الشعور بالحصانة، والشعور بالذات. وأمام هذه المعطيات نجد أنّ الكثير من الشبان يهاجرون بلدانهم الطاردة بحثاً عن أوطان تأويهم وتحقق لهم هذا القدر من "الشعور".

قال: تُرى هل النزوح يتم دائماً لأسباب واحدة وما يهمنا هو الهجرة للعثور على عمل وقد كفل ميثاق حقوق الإنسان والمواثيق الفرعية للدول إقراراً لهذا الحق الطبيعي في العمل والإقامة داخل أوطان جديدة بل واكتساب جنسيات جديدة.

قلتُ: إنني أتحدث عن موضوع الهجرة في حد ذاته وما هي دوافعه، فالهجرة التي تشهدها المجتمعات الآن لها بالتأكيد دوافع سياسية واقتصادية واجتماعية، وأتفق معك أنَّ الدوافع الاقتصادية هي الأكثر تأثيراً، إلا أنَّ الموضوع الذي أبحثه معك هو موضوع "الشعور بالمواطنة"، فهناك أناسٌ يتمتعون في بلدانهم بأوضاع اقتصادية

ومالية ممتازة ولكنهم لا يشعرون بالمواطنة والطمأنينة فيتجهون إلى أوطان أخرى.

إنّ مسألة الوطن كمفهوم حديث قد أنتقل من واقعه التقليدي القديم — أي من مجرد الارتباط بأرض أو أمة — إلى شعور حقيقي بهذا الانتماء، فأينما وجد الإنسان ذاته يكون هناك وطنه.. فكم هم الذين يعيشون غرباء في أوطانهم وهذا يذكرني بقول الشاعر اليمني المعروف عبدالله البردوني:

يمانيون في المنفى ::: ومنفيون في اليمن

إنّ العالم المتقدم من حولنا يعمل وفق معايير إنسانية حيث يشعر الكثير منا بانتمائه إلى ذلك العالم حتى وإنْ كان داخل وطنه الجغرافي حيث أصبحت الجغرافيا— في هذا الشأن — لا أهمية لها، فالمواطنة العالمية تجاوزت الحدود. وكما نعلم أنه في السابق كانت ثمة حدود وفواصل تعيق التواصل أمّا الآن فالمواطنة قد تحولت إلى مفهوم ثقافي، فالثقافة التي ينتمي إليها الفرد هي المُحدِّد الرئيسي لمفهوم "الوطن"، ولست أدري كيف ينظر الأستاذ يوسف إلى هذا الرأي؟!

قال: في الواقع يا "دكتور" أنا أقف مع كلّ كلمةٍ من الكلمات التي قدّمتها حول هذا الموضوع، غير أني أثناء طرحي لهذه المسألة لم أتطلع إلى مواطنة نموذجية. لقد أجدت الحديث حول هذا اللون من المواطنة لكن...

وتواصل الحديث بيننا في الموضوع وقد عرَّج به الأستاذ يوسف ببراعته الفائقة في توليد الموضوعات ذات العلاقة، إلى الهجرة وأسبابها ودوافعها لنجد أنفسنا نعود لمناقشتها من أبواب ومنافذ عدة وهي كما سابقتها من الموضوعات شيقة وهامة إلا أنّ الوقت كعادته الدائمة يضع الحد القاطع لكل البدايات، فنقرر مع ساعات الليل المتأخرة أنْ نهاجر عائدين إلى مَواطِننا — منازلنا — حيث نمتلك الشعور بالطمأنية.

حول المرأة

كنتُ أُدير مؤشِّر البحث عن المحطات الإذاعية في مذياع سيارتي أثناء صباح مُشْرِق في فضاء شديد الزُّرْقَة والصَّفاء، استيقظتُ فيه – على غير عادتي – مبكِّراً لاستكمال بعض الأوراق في أحد الدوائر الحكومية، فشدَّت انتباهي أنباء كانت تتداولها معظم المحطات حيث الجميع يتحدثون عن اليوم العالمي للمرأة الذي يصادف مثل ذلك اليوم*[1]. ولفت انتباهي أنّ معظم الأحاديث تدور حول النضال الطويل للنساء في العالم في سبيل حقوقهن. وكانت هناك مواقف عديدة حول مساهمات لشخصيات إنسانية من الرجال داعمة للمرأة أمثال "قاسم أمين" في مصر وكتابه الشهير "تحرير المرأة" الصادر سنة1899م. بل يكاد أنْ يكون لكلّ مجتمع من المجتمعات وبلدٍ من البلدان شخصيات من الرجال ارتبطت أسماؤهم بمناصرة قضية تحرر المرأة، فقلت متسائلاً في نفسي : من في هذا البلد يمكن أنْ يكون كذلك؟ وقررت حينها أنْ يكون حواري مع الأستاذ يوسف القويري حول قضايا المرأة بعد أنْ تذكّرت أنّه نشر كتاباً بعنوان "قضية المرأة وفصول أخرى"، لعلنيّ أجد ما كنتُ أبحث عنه.

وفي موعدنا المعتاد كان اللقاء على شاطئ البحر..

* 1يصادف اليوم العالمي للمرأة الثامن من شهر مارس من كل عام. وقد أعتيد الاحتفال بهذه المناسبة منذ انعقاد أول مؤتمر للإتحاد النسائي الديمقراطي العالمي في باريس سنة 1945م.

قلتُ: الواقع المعاصر ينظر للمرأة من عدَّة جوانب وزوايا متباينة، في الشرق والغرب والشمال والجنوب باختلاف الجغرافيا. فكيف يرى الأستاذ يوسف ذلك؟

قال: نحن لا نتناول قضية مجرَّدة، بمعنى أنّه لابد أنْ تكون المرأة محدَّدة جغرافياً ومعيَّنة داخل فترة تاريخية.

قلتُ: حبذا لو خرجنا عن الزمان والمكان واعتمدنا مبدأ الفكر الذي يكون خارج حدود الزمان والمكان.

قال: إنّ تحديد الزمان والمكان يُقوِّم الفكر، فكيف ننظر للمرأة دون النظر لمسألة تأثير عصرها ومكانها؟! هل هي مكمِّل للرجل، أم هي نقمة أم لعنة!. أنت تريد نظرة مثالية بمَبْعَد عن نظرة الرجل التاريخية الرديئة — في معظم الدهور — إلى المرأة.. أقول: لَقد أطنبت الأديان في توضيح هذه المسائل ذات العلاقة بموضوع الأخلاق، وينبغي أنْ نسترشد بها.

> قلتُ: عندما نستقري الإسلام نجد الخطاب "خلقناكم من ذكر وأنثى"، موجَّهاً للذكور والإناث، فهو للطرفين، حيث واو العطف تفيد الاشتراك في الحكم، فكيف نشأت النظرة الفَوقِيّة لتفضيل الرجل على المرأة؟!

قال: هذا ينقلنا إلى الحِقْبة البدائية لسيادة أو هَيْمَنَة الرجل حيث استحال الامتياز الاقتصادي تدريجيّاً إلى امتياز جنسي، بل بالأصح اختبأ الامتياز الأول وراء الامتياز الثاني، وأقترن هذا التفضيل لأولوية الرجل الاقتصادية وسلطته الشمولية بحرمان المرأة في فترات لاحقة من المشاركة في الإنتاج والاستفادة المعنوية أو الأدبية من التقسيم القديم للعمل التعاوني، فصارت الأنثى حريماً للاستمتاع المُقَنَّن وأداة للتناسل مقرها البيت دون سِواه، وظهر الحجاب حين ذلك مرافقاً للسيادة الذكورية بعدما حُسِمت بصورة حازمة مسألة السُفور والاختلاط، ولم يتبقَ الكثير من العصر الأمومي الطويل السابق لعصر هيمنة الرجل حينما كانت المرأة شريكاً اقتصادياً نشيطاً وحاكماً لشؤون أقوام الأزمنة البعيدة. وحول ذلك العصر الأمومي نجد "سير

آرثر أيفانس" – وهو عالم آثار من القرن التاسع عشر، انجليزي الأصل، مكث في جزيرة كريت لسنوات كثيرة وكذلك البلقان وأسيا الصغرى ومرتفعات البرانس وأشتغل في بواكير القرن العشرين أستاذا "للأركيولوجيا" بجامعة "هارفارد" الأمريكية – وقد دشَّن الحفريات الكبرى في "كريت" سنة 1900 م، ثم دوَّن نتائجها في كتابه "قصر ميناوس في غُونوسوس"، فنطالع قوله: "في غُونُوسوسّ بجزيرة كريت وكذلك في الأناضول توجد تماثيل قائمة منذ سنة 3400 ق.م حيث كان الناس يعبدون الأم التي تحمل طفلاً بين ذراعيها، وهناك تماثيل لنساء مصنوعة من الخزف المصقول". وكانت حفرياته في هضبة "كيفالا" بغونوسوس عاصمة كريت قبل 5400 سنة، أما العاصمة في القرن التاسع عشر فهي "خانيّا" نقلاً عن كتاب " في جزيرة كريت" تأليف الباحث اليوناني "بابا داكيس"، الذي ترجمه عن اليونانية الدكتور "محمود الوحيدي"، وصادر عن دار نشر شؤون ثقافية، طرابلس الغرب، يناير 2010م . وقد وجَّه العلم في العصر الحديث انتقادات إلى مسألة "عبادة الأم" التي أستنتجها "إيفانس"، ففي العصر الأمومي لم تُعبد المرأة كحاكمة أو أُم، لكنّ بتأثير مكانتها العالية فقد أُنِّثت الربَّات الوثنيات، ومعظم الربَّات هُنَّ نجوم في السماء مثل " فينوس" و"أفروديت"و"أشتار" و" عشتار" و"عشتروت" ثم "استار" في الأساطير الجرمانية الأكثر قِدَماً، وكلها إشارات إلى كوكب " الزُّهَرَة"، وكذلك صَنَم "العُزَّى" المؤنث في مَكَّة الوثنية. ومن واقع كتابات العالمين "مورغان" و"باخوفن"، اللذين أورد مختارات من نصوصهما العالم البريطاني "فِردْريك إنجلز" في كتابه الشهير "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة The Origin of the Family" بم Private Property and the State الصادر سنة1895م، وأيضاً من واقع ما إرتآه علماء "الإنثربولوجيا" الآخرون فإنّ العصر الأموم يتحدَّر إلى عصور أقدم بكثير مما تُوحي به مكتشفات "سير إيفانس". وأجدُني مضطراً إلى القول بأنّ كتابي "مدخل إلى قضية المرأة" الصادر في تسعينات القرن العشرين هو أكثر إيضاحاً لعوامل انحسار العصر الأمومي بجميع أطواره وبدء سطوة الذّكر.

قلتُ متدخلاً: على ما أذكر أنّ "أنجلز" في كتابه "أصل العائلة" اعتبر أنّ دراسة تاريخ العائلة يرجع إلى سنة 1861 عندما صدر كتاب "باخوفن J.J. Bachofen" الذي عنوانه "حق الأم" *[1].وبطبيعة الحال فإن هذه الدراسة مبنية على فكرة أنّ العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم في الأساس على العامل الجنسي والذي أطلق عليه "باخوفن" مصطلح "الهيتييرية Hetaerism"، وهو التوصيف الذي استهجنه "انجلز".

ورأى "باخوفن" أنّ هذه العلاقة تنفي كل إمكانية لتقديم الدليل الأكيد على الأبوة، و لهذا لم يكن من الممكن تقرير النسب إلا حسب خط الأم. وبهذا تمتعت النساء بقدر كبير من التقدير والاحترام، الأمر الذي تعززت معه مكانة المرأة إلى حدٍ أطلق عليه باخوفن "سيادة المرأة التامة أو حكم النساء".

وبعد صمت دام لبُرهة استغرقه الأستاذ يوسف بعدما استمع إليّ لم أشغله فيها، استرسل الأستاذ يوسف حديثه دونما تعليق أو إبداء ملاحظة قائلاً:

في عشرينات القرن الماضي طَرَحَ الأستاذ سلامة موسى في مجلة «الهلال» التي كان مسؤولاً عنها عدَّة أسئلة حول المرأة، وبالذات موضوع السفور والحجاب شارك فيه لفيف من كِبار المفكرين والأدباء المصريين كـ«طه حسين» و«عباس محمود العقاد» و«أحمد لطفي السيد» وغيرهم. وجدير بالانتباه أنّ صيغة أسئلة الاستفتاء الذي أجراه الأستاذ سلامة موسى – وهو مسيحي الدِّيانة-كانت صيغة مثقف مُستنير يأخذ كلّ الاعتبارات في حُسبانه كما يلي: « المرأة الشرقية ماذا يحسن أنْ تستبقي من أخلاقها التقليدية؟ وماذا يحسن أنْ تقتبس من شقيقتها الغربية؟». وفي نفس مجلة الهلال التنويرية خصَّصَ سلامة موسى – في ذلك الأوان – صفحات كثيرة لحواره مع الشيخ

*[1] العنوان الرسمي للكتاب: «حق الأم، بحث في حكم النساء في العالم القديم على أساس طبيعته الدينية و الحقوقية.

علي عبدالرازق – أحد كِبار علماء الأزهر والقضاء الشرعي، ومؤلِّف كتاب « الإسلام وأصول الحكم» سنة 1925م الذي أثار أصداء واسعة في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي – وعندما سأله الأستاذ سلامة موسى : هل توافقون على سفور المرأة المسلمة على نحو ما فعل الأتراك؟ أجابه الشيخ قائلاً: «كُنت في تركيا سنة 1927م، وكان السُفور مُقرَّراً في القانون ولكنّي وجدت أثره غير واضح في الأستانة، ولعل ذلك لأنّ الناس كانوا في أول العهد به».. ثم يستأنف الشيخ علي عبدالرازق قائلاً: «أنا أوافق بلا تردد على السفور ولا أرى في الإسلام ما يُعارضه ولكنّي أحِبُّ أنْ تكون للسفور قيوداً أخلاقية شديدة ومتينة كما كان عند الإنجليز قبل الحرب».

وما يهمنا الآن استطراداً لموضوع الحجاب والاختلاط أنْ نشير إلى العلاقة الوثيقة بين العمل وتطور الزي، فثمة تعديلات تدريجية أو مفاجئة طرأت على زِيّ المرأة التي اشتغلت مدرِّسة وممرِّضة ثم فيما بعد مهندسة وطبيبة فنلاحظ انعكاسات العمل على الزِيّ عموماً. وإذا أردنا النظر إلى رحاب أوسع فسنجد أنّ السُفور والاختلاط مسائل محسومة وغير مُفضية إطلاقاً للمشاكل مُنذ فجر العصر الزراعي في مصر، فالحقول هناك لا يحوطها أيّ سياج من الطوب أو «الهندي» أو حتى الأسلاك الشائكة!، فهناك تُشارك المرأة الريفية رفيقها الذَّكر في الحقل، فهما يعملان معاً من شروق الشمس إلى غروبها. أُنظر! إنّ الاختلاط قائم، والسفور قائم، ومع هذا لم ينتج عن هذا الوضع أيّ شكل من أشكال الفجور أو المعاكسات أو حرق الوقت في التفاهات بل ثَمَّةَ احترام متبادل وانهماك تام في العمل.. هذه الرفقة الحقيقية باشتراك المرأة في العمل أرتقت بمفاهيم وظنون كليهما، فلم يَعُدْ الرجل يحصر تفكيره في حبس سيدة داخل بيت تطلُّ نوافذه على جدران المنزل. بيد أنّه وسط مجتمع محافظ مثل مجتمعاتنا العربية هل على الرجل أنْ يَدَعَ باب منزله مفتوحاً والمرأة حرة تفعل ما تشاء؟ لا. فقبل النهضة

والحداثة كان التوازن مُريحاً، ولا يمكن القول هنا بأنّ هذه محافظة أو — في أقصى التعوت — رجعية فقط، إنما هو تطابق بين المجتمع بتقاليده وبين معيشة الأفراد، فرضوخ المرأة في ذلك الزمان كان تلقائياً وبديهياً، إلا أنّ العقبات لا تزال قائمة، فكيف يكون بمستطاع رجل متعلم وعصري — طبيب أو مهندس أو تاجر — يحمل قناعة واضحة بضرورة الحداثة أنْ يحوِّل قناعته إلى حقائق؟!. إنّه ليس غِراً كي يتجاهل التقاليد السائدة كالفصل بين الجنسين بمعنى عدم الاختلاط، فالريادة الشخصية هنا وَخيمة العواقب وتصيب المغامر بإيذاء وخدش بل نبذ. ونُلاحظ أيضاً أنّ فقدان الأبعاد الاجتماعية والحضارية للمرأة الشرقية يصوغها هي نفسها وبقناعة تامة بأنها محض أنثى. وسنجد أنّ الشريعة والوَعّاظ والتربية المدرسية تحتوي على قيم تساعد بقدر كبير في تجنُّب المآسي، لكنّ المجتمع يظل — مع الأسف — ضعيف الاستيعاب.

ومن جانب آخر آزرت التحوُّلات الاقتصادية المرافقة لثورة 1919 م قضية المرأة في المدن بصورة خاصة لأن المشاكل الاجتماعية تكاد تكون منعدمة في الريف، وكانت تلك التحوّلات تَتِمّ لصالح مصر، فها نحن نرى أنّ مشروع النهضة وتحديث المؤسسات والمفاهيم هو مشروع قديم. وإحدى مراحل هذا المشروع الساطعة وثيق الصلة بأسرة «محمد علي باشا الكبير»1805م والخديوات والملوك التالين له. يقول سلامة موسى: « كان الخديوي إسماعيل يحبّ المصريين ويريد أنْ يرفعهم إلى مستوى الأوربيين، وهو الذي أعاد إليهم حقوق الامتلاك للأراضي وغير ذلك. ونظام التعليم القائم الآن في مصر من ابتدائي وثانوي وعام يرجع الفضل فيه إلى «إسماعيل»*[1] الذي تسلَّم العرش وليس للحكومة سوى أربعة مدارس. وتركه وبها أربعة آلاف وثماني مئة وأربعة عشر مدرسة بعدما نظَّم نَظارة المعارف"*[2] .

* 1- الخديوي إسماعيل تُوِّج سنة 1867م
* 2 - تحليل سلامة موسى المنشور في عشرينات القرن العشرين بمجلة "الهلال"

وفي سياق التالينَ للخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي الكبير الذين حملوا مشاعل التحديث لمؤسسات مصر ومفاهيمها نجد في عهد الملك فاروق المُتوَّج سنة 1936 م أنّه عَمِدَ مع حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة عَبْرَ البرلمان إلى سن قانون 1936م بإعادة تنظيم الأزهر، فنقرأ – ضِمْنَ نتائج هذا القانون – إحصاء سنة 1943م لجزء من مكتبة الأزهر تصنيفاً على النحو التالي : 1499 مجلداً في المنطق، و466 مجلداً في الحكمة والفلسفة، و122 مجلداً في الكيمياء والطبيعة، و30 مجلداً في الموسيقا. ولا نَنْسَ أنّه بعد هذا التاريخ بعشرات السنين ظلَّت الجغرافيا في بعض البلدان العربية الأخرى المأسورة بتخلفها رجساً من عمل الشيطان إلى أنْ تغيَّرت الأحوال فيما بعد ووصلت لمسات التحديث إلى رقاع كثيرة. وبديهي أنّ التكنولوجيا كجزء من مشروع النهضة فعل فعله السحري في تغيير الأحوال وبالتالي المفاهيم. أمّا من زاوية حرية المرأة فمن اليسير أنْ نلاحظ أنّ النخبة المثقفة من الساسة المتشوِّقين للتحديث والراغبين في بسطه على البقاع المتصحِّرة يأتي في سياقهم – ممَّن عملوا في مناصب كبيرة – الدكتور "محي الدين فكيني" – رئيس وزراء ليبيا في العهد الملكي – الذي كان المِهماز الواقعي وراء إصدار قانون حق المرأة الليبية في الانتخاب والتصويت لمرشحي البرلمان، ولأنّ هذا القانون استبق التطوُّر التاريخي فإنّ الطرف الوحيد الذي قاوم هذا القانون هو المرأة، فقد اعتبرت ذلك خروجاً عن المألوف من التقاليد وجَريرة بل ذنباً لا ينبغي إرتكابه.

قلتُ: لماذا نستعمل كلمة رجل وامرأة؟ وهل كلمة رجل تخصّ الذَّكر مثلاً أم أنّ الرجولة مسألة أخرى؟ ولماذا لا يستعاض بكلمتيّ: ذكر وأنثى؟!

قال: نعم. فهذا ما تبقَّى أمامنا من المسألة "البيولوجية"، فكلمة "رجل" كلمة تاريخية أكثر من كونها كلمة طبيعية. وصحيح أنّ كلمتيّ ذكر وأنثى هما تقسيم في النطاق الطبيعي يَدُلّ على التخصُّص الجنسي، لكنْ هذا

التخصُّص ليس امتيازاً بل "تمايز وظيفي". ويعلِّمنا التصنيف العلمي أنّ الذَّكر عابر بالنسبة للنسل أيّ أنّ دوره محدود جداً، في حين أنّ 99٪ من أعباء النسل يقع على كاهل المرأة، وبالتالي فإنّ استمرار الجنس البشري مُرتَهن بوجودها. وقد عملت الشريعة من جانبها على تثبيت المعاني العظيمة للأم والأخت والزوجة وبقية المعاني الأخلاقية.

قلتُ: حسناً. إنّ الموضوع أخذنا إلى جانب آخر، فهو موضوع دقيق وحساس ويعتمد على الكيفية التي يُطرح فيها للنقاش. فبنظرة كُلّيّة نجد أنّ المرأة والرجل كلاهما مكمِّل للآخر، وربما أمام هذه النظرة التحررية نجد غروراً عند المرأة يدفعها نحو النزوع إلى السلطة والسيطرة، وقد يأتي يوم يُطالِب فيه الرجل بحريته.

قال: أرى أنّ ما يأخذنا إلى جانب آخر هو"الفُكاهة"، فمازالت المرأة الشرقية على نحو جِدّي متخلِّفة تاريخياً ورفيقها الرجل مثلها، ولكي يتم تغيير الأحوال نحو مزيد من الصعود على درب التحديث ينبغي أنْ تتوفَّر المؤسسات الاقتصادية العصرية والمهن العصرية والتكنولوجيا والتعليم والانفتاح على العالم وهي عناصر تأذن بنجاح مشروع النهضة. فعندما شاركت المرأة الشرقية في الإنتاج داخل المدن لم يحدث ذلك دفعة واحدة بل بدأ كإرهاصات بواقع الضرورة وتحت ضغط العصر حيث عملتْ المرأة في عدَّة مهن. ومع التقدم واتساع مساهمة المرأة الشرقية في الإنتاج أو العمل بشكل العموم سوف يَتمّ إرساء الأرض والأفق.

وفجأة سكت الأستاذ يوسف عن الكلام وكأنّه يُبحر في عُباب البحر الذي أمامنا يبحث ويجول بين سفنه يُتابع أمواجه في مدِّها وجَزْرِها، فأدركت أنّ مَسْرَباً جديداً قد يأخذنا في رحلة شاعرية رأيتُ من الأنسب أنْ نخصِّص لها وقتاً آخر.

الوطن والوطنية

الاعتراف

أثناء فترة القيلولة بعد غذاء يوم الجمعة، مكثت متكئاً على الفراش أتابع مع أبنائي مشاهدة أحد الأفلام الأمريكية، وكان مشهد من مشاهده يُصَوِّر دخول أحد أشخاص القصة إلى الكنيسة ليتوارى خلف صندوق خشبي – وهي أحد طقوس الدِّيانة المسيحية المتعارف عليها – ليدلي لـ "القِسّ" بإعترفات عن ذنوب ارتكبها. وعلق أحد أبنائي على هذا السلوك مخاطباً شقيقه الأكبر قائلاً:

- هل يظن المسيحيون أنّ "القِسّ" يملك غفران الذنوب، علماً بأنّ الذنوب لا يغفرها إلا الله!.

فأجابه شقيقه الأكبر:

- إنّه سلوك تقليدي لكنّ العِبْرَة فيما يحقِّقه هذا السلوك من راحة نفسية لمن يقوم به، إلا أنّ هذا أيضاً خطأ فادح لكون المذنب عندما يقوم بهذا السلوك لا يرتدع أو يَكُفّ عن أخطائه فهو يشعر أنّ بإمكانه تكرار الأخطاء التي أَدْلَى بها

في الاعتراف.

كنتُ أستمع دونما محاولة مني للتدخل حرصاً على عدم ممارسة دور الوصاية المُطْلَقَة الذي غالباً ما يلجأ إليه الآباء في محاولات بائسة لفرض آرائهم. وانشغل الأبناء في حوارهم في حين تابعت منفرداً أحداث الفيلم إلى أنْ أخذني النعاس لنوم هادئ وعميق.

كان موعدي مع الأستاذ يوسف على تمام الساعة السابعة والنصف مساءً للذهاب إلى موقعنا المحدَّد على شاطئ البحر حيث نمرُ أولاً على أحد المقاهي الواقعة على الطريق لنأخذ منها كوب القهوة الورقي الخاص بالأستاذ "يوسف"، ثم على أحد "الدكاكين" لنشتري بعض المسلّيات من عصائر وقِطَع "السويت" نتناولها خلال ساعات الجلسة والحوار.

كان الجو شديد الحرارة ومرتفع الرطوبة. جلسنا في مكاننا المعتاد على المصطبة الأسمنتية الممتدة إلى مسافة طويلة على شاطئ البحر، وتحديداً في تلك المنطقة المقابلة لمبنى الإذاعة.

قلت بعد أنْ أصبحنا جاهزين للحوار: ألم تنصّ تعاليم ديننا الحنيف على أنّ الاعتراف بالذنب فضيلة؟!

قال مندهشاً: وهل بَدَرَ مني – لا سمح الله – ما يدعو إلى هذه المقدِّمة؟!

فضحكتُ لهذا الظن وقلتُ: لا يا أستاذ يوسف ولكن أردتُ فقط أنْ أتعرّف على رأيك في مسألة "الاعتراف" الذي أصبح من مظاهر السلوك الديني عند المسيحيين؟

فقال وهو ينظر إليَّ باستغراب: حبذا لو وجدنا مُفْرَدَة أخرى مُرَادِفَة أو مختلفة عن كلمة "الاعتراف"، لأنّ الاعتراف في اللّغة العربية، وبالذات في المعنى الشائع بين الناس تقترن أو تستدعي مباشرةً معنى الاعترافات المدوَّنة في النيابات ومراكز "البوليس"، وتكاد أنْ تنحصر في هذه الدلالة. ومن النادر جداً أنْ يتبادر إلى أذهان الناس أنّ هذه الكلمة تَعْنِي شيئاً مُغايراً وأكثر رحابة، وأرى أنّ الذي تَعْنِيه

بحديثك، هو"الاعتراف" بمعنى الإفْضَاء أو البَوح.

قلتُ بإصرار: سيبقى الموضوع في كلّ الأحوال موضوع "اعتراف"..

فقال مُقاطعاً: الواقع إنّ موضوع "الاعتراف" – مع رجائي أنْ يُؤخذ في الاعتبار تَحَفُّظِي اللُّغوي السابق – يدعوني للتساؤل عن ما هو الداعي لهذا الاستعمال؟! هل لأنّه ارتبط بأحد التقاليد الجيدة للديانة المسيحية ؟

قلتُ: "الاعتراف" مسألة تتعلّق بالمشاعر النفسية، فهو يؤدي إلى تحرير الكظوم النفسية وإلى اتساق النَّفْس من جديد وإعطاء فرصة لتطهيرها.

قال: نعم. "الاعتراف" – في واقع الأمر – نوع من التَّطَهُّر، خاصة عندما يجري ذلك لإزاحة ثِقْل معيَّن، كتأنيب الضمير أو ما شابه، لكنّ "الاعتراف" هو أيضاً سرد ذكريات، فهل يجوز اعتبار ذلك اعترافاً؟! إنّه في الحقيقة اقتناص واستخدام لمحتويات الذاكرة من جديد وعرضها على القارئ – سواء بشكل إبداعي أو في حكايات مشتتة فيما يُسمَّى " ثرثرة"، أو حديث عشوائي إلى الأصدقاء، أعْنِي أنّه ليس هناك عندئذٍ أمر يشعرُ الإنسان بوطأته على ذاكرته فيقوله في أحاديثه. إنّ الناس يتذكَّرون في أوقات كثيرة، وهذا التذكُّر لا يستهدف بناءً معيناً إنّما هو كالعَرَق والدَّمع إفراز عادي ينسكب في أحاديث متنوِّعة، في حين يكون التذكُّر الإبداعي متجِهاً نحو هدف هو "السيرة الذاتية" ذات النَفَس الطويل للبَوْحِ والإفْضَاء والمُكاشَفة.

هنا شعرت بأنّ الحديث بدأ يأخذ مساراً إلى مفترق طرق، وهو بالطبع لا يأخذنا إلى متاهة فأردت المحافظة على ذلك الطريق دون إصرار على الدخول في تلك التعرّجات التي حين تُبعدنا فإنّها تُدخلنا – في ذات الوقت – إلى مسالك أكثر متعة وتشويقاً.

قلتُ: أنت تربط ببراعة فائقة موضوعنا بموضوعات تتشعَّب بنا لكنّها تمدّنا بآفاق متوسِّعة لما نتحدث فيه حول "الاعتراف".

قال وهو يدرك أنني أحاول محاصرته في زاوية ضيِّقة: إنني لا زلت أقف بتردد أمام كلمة "الاعتراف" عند استخدامها لتسمية نشاط الذاكرة الذي يأتي بدون ضغط من الإحساس بالذنب، وهذا التفريق هامّ جداً لتصنيف الحالتين. ومن تاريخ الأدب المصري أنّ الدكتور "طه حسين"، بعدما إطّلع على النسخة الأولى أو المخطوط الأول قبل الطبع لأحد أدباء مصر المعروفين، وهو غالباً " محمد عبدالحليم عبدالله" أو "أمين يوسف غراب"، نَصَحَ المُستَشِير بأنْ لا يُغامر بكتابة ذكريات حول أمور لا يستطيع الرأي العام المتخلّف والمرحلة الحضارية في مجمل العالم العربي – وفي الشرق كلِّه دون استثناء – أنْ يستوعب هذه المسائل، فنكص الأديب عن الإصدار و قام بحذف الفقرات المَعنيّة.

وهنا توقف مُحدِّثي عن مواصلة الحديث وهو ينظر إليَّ بتمعُّن وكأنّه يتذكّر موضوع التشعبات التي أشرتُ إليها، ثم ابتسم على غير عادته في الحديث وواصل قائلاً: المسيحية تتيح مَسْرَباً للتفريج عن الكَظْمِ النفسي وتؤدي خدمة جليلة للإنسان المسيحي مقارنة بالعيادة النفسية. إنّه تماماً كصديق حميمي يُصْغي بكلّ جوارحه ومنسوب إلى ما هُوَ أعلى في جو من الروحانية الدينية. ومعلوم أنّ جميع المذاهب المسيحية يُوجد "كرسي الاعتراف" ما عدا المذهب " البروتستانتي" الذي ألغَى هذا الكرسي مع كثير من التعديلات الأخرى التي أدخلها على الدِّيانة المسيحية في نطاق مذهب البروتستانت. وواضح أنّ مُجادلات "مارتن لوثر" البروتستانتي مع البابا الكاثوليكي حول براءات أو "صكوك الغفران" في القرن السادس عشر لم تكن رديئة، لكنّ الرديء هو نظرة البروتستانت إلى " كُرسي الاعتراف" وكأنّه "كرسي غُفران" يَمنح القِسُّ بموجبه للمعترف براءة غُفران لذنوبه ومعاصيه. فهذا الغُفران العجيب المزعوم غيرُ موجود إطلاقاً في كلّ مذاهب الدِّيانة المسيحية في جميع أرجاء العالم لا في ماضي الزمان ولا في حاضره. وتُورِد الإحصائيات العالمية – ذات المَغْزَى – أنّ نسبة الانتحار مرتفعة في الأمم الآخذة بالبروتستانتية!.

قلتُ: عندما تحدثنا عن الاعتراف طالبتَ في بداية حديثك بالبحث عن كلمة بديلة لدرء اللبس والفهم الخاطئ الذي اختلطت فيه كلمة " اعتراف" بالاعتراف القانوني أمام مراكز الشرطة أو النيابة أو المحاكم ..الخ. لكنني مع فكرة الارتقاء بالمعنى بدلاً من النزول به، فإنني لست مع فكرة البحث عن المرادف أو البديل إنّما ينبغي أنْ نرتقي بهذا المعنى بما يتلاءم ومعناه الحقيقي، فالاعتراف في حدّ ذاته "فضيلة". والاعتراف في تقديري دائماً يكون بالإقرار للنفس، فيسبق الاعتراف للآخرين الاعتراف والإقرار إلى النفس لأنّ الإنسان عندما يُقنع نفسه بارتكاب خطأ أو إثم ما، فهذا يضع العربة في سكة الانطلاق الصحيح، وعندما يُصرِّح بذلك للآخرين – سواء أكان إلى صديق مقرَّب أو شخص مختص – فهذا يمثِّل الخطوة الأساسية الثانية في اتجاه راحة الضمير. وفي وجهة نظري أنك باهتمامك بمسألة "السيرة الذاتية" فكأنّي بك تقودنا إلى "المذكرات الشخصية".

وهنا قاطعني الأستاذ يوسف مستخدماً الحركة الدّالة على طلب نقطة نظام وعندما أدرك استجابتي لهذا الطلب، سارع قائلاً: لقد ذكرتُ أكثر من مستوى لاستخدام الذاكرة، فقد يكون الناتج سَمَرَاً، أو عملاً فنياً "سيرة ذاتية"، وقد يكون أيضاً مذكرات على مِنوال مدوَّنات "الفقيه حسن" التاريخية أو وقائع "الجبرتي" ويومياته. وفي مثل هذه المذكرات يُورِد كاتبها بشكل موضوعي وقائع رآها أو عاصرها، لكننا لا نحس بوشائج عاطفية بينه وبين السَّرد.

قلتُ: سأنتقل للتحدّث عن المذكرات التي نشرها كُتّابها بوسائل مطبوعة واسعة الانتشار، وأرى أنّه ليس من حق الشخص أنْ يتصرّف بأسرار الآخرين، فهو حر في شأن أسراره ولكنْ عندما تتقاطع وتتشابك مع أسرار الآخرين فليس من حقه منفرداً الإفصاح عنها، لأنّ ذلك يُوقع الآخرين في إشكاليات، فكثير من الناس كتبوا مذكرات فضحوا فيها آخرين، كأنّ تكتب راقصة مثلاً مذكراتها التي تكشف فيها عن علاقات فاضحة مع شخصيات عامة، فهذا في تقييمي

يختلف طبعاً عمّا أتناوله في حديثنا، لأنّ هذا النوع من "الاعتراف" فيه إخلال بالقواعد الأخلاقية، ولكنّ الاعتراف الأقوى هو أنْ يعترف الإنسان بما يخُصّه.

نظر الأستاذ يوسف إلى السماء وهي تتلألأ بالنجوم التي تبدو وكأنّها مصابيح تزيّن محيط الليل المظلم من حولنا، ثم أستغرق في التفكير قليلاً وقال: بالطبع، فالفروق ماثلة دَوْمَاً بين كتابة الفضائح والإثارة لغرض الكسب وبين التحليل النفسي الرصين الذي يستهدف عمق المعرفة. أمّا القواعد الأخلاقية بهذا الصَّدَد فواضحة ومعروفة. لكنْ دعنا الآن نعود إلى كظوم الذاكرة وعوامل كبتها وإحباطها. وفي تلك الحال سننحسر توافقاً مع النفوس المعذَّبة لأننا سنجد أنفسنا في نطاق الذاكرة الناجمة عن توتر أو ضغط إثم معيّن، وهي تجابه محظورات "التّابُوْ" الذي كان يُسمى في جاهلية العرب بالطاغوت، أيّ الأعراف التي هي قوانين بدائية غير مُدوَّنة في الغالب وإنْ وَرَدَتْ أصداؤها في الشعر والملاحم والفولكلور التاريخي المكتوب.

ثم أردفَ قائلاً: وبمنأى عن الكظوم النفسية والتوتر والأمراض وصراع المنكوبين مع "التَّابُوْ" والطاغوت، أرى الآن أنّه من اللازم إعطاء "السيرة الذاتية" قَدْراً أكبر من العناية وذلك نظراً لأهميتها بالنسبة لموضوع الاعتراف. وأكرر أنه من حُسْنِ المصادفة وجود دراسة موجزة كتبتها في وقت سابق لأحد الصحف وهي تتناول نفس الموضوع الذي نتحدث فيه معاً.

وهنا مد الأستاذ يوسف يده نحو حقيبته الصغيرة وأخذ يبحث بين ما تحويه من أوراق ثم أخرج مجموعة من القصاصات ونظر إليّ ثم شرع يقرأ تحت نور مصابيح الشاطئ النص التالي: "الترجمة الذاتية أو السيرة الذاتية Autobiography " هي نوع من الكتابة ذات الأوتار الوجدانية. والمفترض في هذا النوع أنْ يكون قريباً أو عند تخوم التأليف الأدبي، وفي حالات نموذجية ونادرة يأتي النصّ عملاً أدبياً خالصاً بالمقاييس الأكاديمية، ويعني ذَلك ضرورة توفُّر أنْساق للوقائع الخاصة والعامة لها غَوْرٌ كافٍ لإدراجها في قائمة الآداب، ويتطلّب الأمر حينئذٍ

ألّا تُطرح الوقائع للقارئ خالية من العمق والشعور كأنّها أنباء عن ماضٍ جرى ذات يوم.

وسكتَ برهة شاخصاً نحو البحر ثم عاد ليقرأ: هل يمكن القول إنّ طه حسين بكتابه الأيام قد أنجز سيرة ذاتية؟ لقد كان ذلك ممكناً لو أنّ النصّ مثل نصوص أخرى لمؤلفين غيره قد حام عند حدود التأليف الأدبي، فمن السهل عندئذٍ ملاحظة ذلك حيث لا يبدو كتاب الأيام كسيرة ذاتية معتادة، فنحن نشعر أثناء مطالعته بأنّ السيرة الذاتية تصنيف غير ملائم بسبب أنّ المستوى النموذجي في كتابة السيرة الذاتية قد نقل وصاغ ذكريات مُتلاحمة في أتون التجربة الفنية فغاص وأفْرَزَ نصاً أدبياً صافياً. والحال عينه في الأدب الروسي – الذي هو جزء بارز من الآداب العالمية – فلقد كتب "ماكسيم غوركي" سيرته الذاتية أدباً ناصعاً اكتسبت فيه الوقائع والانطباعات وبواكير الخبرات الرهيفة الحميمية جسامة وغَوْراً ينأى بها عن كونها مجرد استرجاع وتدوين عادي لذاكرة تفيض سرداً بالألم أو البهجة. إنّ السرد طريق معتاد للتذكُّر والإفضاء، لكنّ الإبداع الأدبي يُنشئ تَبعات مختلفة ويُكلِّف الصائغ – وهو غالباً الأديب – بمهام عويصة للذاكرة والمخيّلة معاً. وبالوسع استجلاء ذلك في المجلدات النفيسة التي خصَّصها "ماكسيم غوركي" لسيرته وبالذات في كتابه "جامعاتي" المنقول إلى العربية قبل نصف قرن. وَلَدَى " نهرو" رنّة خاصة تسود مُجمل سيرته الذاتية، لا تجيء من باب الجزالة فحسب، بل تتردَّد كخفقٍ خافت أو حِس أدبي تعزِّزه ثقافة واسعة، عمل كلاهما على الدفع بالسيرة الذاتية قريباً أو عند تخوم التأليف الأدبي. وبالرغم من أنّ "نهرو" لم يشتغل بالكتابة الأدبية، فهو ليس بأيّ حال أديباً من أدباء الهند، إلّا أنّ الومضات المتتالية والتطريز الإنساني وترصيع الوقائع بمعانٍ أشمل وأكبر من حجوم الوقائع ذاتها، يأذن بالنظر إلى تلك النُصوص كمعالجة نثرية تعلو فوق أيّة صيغة توثيقية أو موضوعية..

وهنا قاطعته في محاولة لإراحته قليلاً وقلتُ: وكأن هذا الموضوع كُتب لهذا الحديث..

فابتسم وواصل قراءته: حين تستوقفنا الأعمال الأدبية المُبكِّرة والهامّة لتوفيق الحكيم مثل "عصفور من الشرق" و "يوميات نائب في الأرياف" وهما مستمدان – على التوالي – من وقائع حياته كطالب يدرس القانون في باريس، ثم من مجريات عمله كوكيل للنيابة بعد تخرّجه، سنجد أنّ الصِّلة تكاد تكون منقطعة تماماً بين ما أتَّمه من إبداع أدبي وبين السيرة الذاتية نتيجة لإنهماكه في التجربة الفنية، بمعنى وثوب وقائع الحياة وتجاربها إلى مستوى مختلف نوعياً عن السَّرد والاجترار حيث تُحيلُها المعالجة الأدبية إلى نصوص مستقلة عن المصدر الواقعي. وعلى غِرار ذلك تلوح لي المجموعة القصصية التي ألفها " نجيب محفوظ" بعنوان "مرايا"، وهي "تابلوهات" أو "لوحات" نابضة بالفُروق إستقطرها الأديب من معايشته الطويلة للوظيفة والموظفين. وأحياناً تتَّخذ السّيرة الذاتية مَسْرَباً مشابهاً لتوثيق المستندات التاريخية أو الأصول الأثرية المدوَّنة، وهو نهج في التأليف لا يخلو من الغرابة إرتاده الفيلسوف وعالم الرياضيات العليا في بريطانيا "برتراند رسل" الذي هو أيضاً سياسي شهير ومؤازر بارز لحقوق الإنسان، خَدَمَ طويلاً قضايا السِّلم والنضال على مدى قارات العالم بأكمله مثل نظيره الفرنسي " جان بول سارتر". وتعود أصول "رَسل" إلى عائلة عريقة وراقية وأرستقراطية. وقد أتاحت تلك النشأة فرصاً ميسورة لعلاقات وطيدة مع مشاهير عصره من السّاسة والمفكرين والشخصيات الكبيرة المؤثرة – بشكل أو بآخر – في أحداث التاريخ. وقد بَنَى "رَسل" سيرته الذاتية على ركائز مُنسَّقَة تتكّون من مراسلاته مع أعلام زمنه، وهي مقطوعات نثرية فائقة الحميمية والخصوصية تكمن فيها الذات والبيئة فننساق بسهولة وشغف لنتعرَّف أكثر فأكثر على تطوّره الفكري وتجاربه والأحوال العامة لبلده وعصره، وبالتالي سيرته المنتقاة بفضل تلك الرسائل. ووقتما نقرأ السيرة الذاتية للكاتبة الأمريكية ذائعة الصيت "هيلين كيلر" – وهي إمرأة عمياء وصمّاء وخرساء – فلسوف تأخذنا الدهشة أمام هذه المقدرة على دَحْرِ الإعاقة، ثم لا نلبث أنْ نندمج بإنبهار مع سردها الجميل بمزاياه التصويرية الأدبية التي تأسر القلوب. وتُبدِي عالمة الطبيعة الكبيرة

"مدام كوري" في سيرتها الذاتية المترجَمة للُّغة العربية الملاحظة التالية فائقة الأهمية قائلةً: "ضحينا بثروة كبيرة لإمتناعنا عن استغلال مُكتشفاتنا، وقد زعم أصدقاؤنا أننا لو فعلنا لَمَا خلّفنا لإبنتينا مالاً تعتمدان عليه فقط، بل لتمكّنا من إنشاء معهد للراديوم، فلا أعاني في بحثي قلة ما في يدي منه. ومع ذلك أظن أننا كنّا على صواب. إنّ الإنسانية تحتاج ولا ريب إلى الرجال والنساء العمليين، لكنّها في حاجة كذلك إلى أصحاب الرؤى والأحلام، الذين يُسيَّروا بقاسرٍ خفيّ وراء رؤاهم وأحلامهم فينسون العناية بمصلحتهم الخاصة.". وأنهى الأستاذ يوسف بذلك قراءة النص، وسكتَ من جديد ثم قال: أمَّا كتّاب وأدباء الوطن الذين عالجوا هذا اللون من التأليف فسنلاقي الأساتذة: أحمد الفقيه حسن، ومصطفى السراج وأحمد زارم، وكامل المقهور، وعبدالرحمن الجنزوري، والدكتور زياد علي، ومحمد الأسطى، والشيخ الفاضل أحمد نصر في كتاب "المراحل"، والأستاذ عبدالله القويري في كتابه "وَقَدات "، والكتاب الآخر المعروف "حياتهم" الزاخر بانطباعات المهجر.

نظرتُ من حولنا فوجدت أنّ السكون يخيِّم على المنطقة وينتشر فوق البحر، وأنّ الشارع الذي كان يكتظ بحركة السير صار في سكينة تامّة، فنظرتُ إلى عقارب الساعة فوجدت أنّها تشير إلى مَشارف الفجر، كان الحديث شيقاً فأنسانا عاملَ الزمن، وفي لحظة تلاطمت فيها أمواج البحر تعانق صخور الشاطئ أمسكت بيد الأستاذ يوسف استنهضه برفق شديد وقلتُ: لقد أخَذَنا الوقت يا أستاذ يوسف لأنّ حديثك "ذو شجون"، علّنا نكتفي اليوم كي يَبْقَى في الذاكرة شيء لحديث لقائنا القادم.

الوطن والوطنية

أضغاث أحلام

في أحد الأيام صادفتُ صديقاً وقد بدا لي منزعجاً، فسألته عمّا يؤرِّقه فأجابني : حلم أقلقَ منامي وعكَّرَ مزاجي كلما تذكرته. فدعوته أنْ لا يقلق طالما أنّ المسألة مجرد حلم .

وفي ذات المساء التقيت الأستاذ "يوسف القويري" فأحببت أنْ أثير معه موضوع الأحلام وأتعرَّف على قراءته الشخصية لهذا الموضوع، بعد تساؤلات المجاملات المألوفة..

قلتُ: اليوم يا أستاذ يوسف سنغوص في موضوع قد يُبحر بنا بعيداً.

ففاجأني مُجيباً بابتسامة عريضة وحركة مرحة بيديه مضخِّماً صوته وكأنّه يداعب طفلاً صغيراً: "أووه" لا بد أننا سنحلم من جديد!!

قلتُ: لقد أصبت المرمى. هل ثَمَّة تفسير للأحلام التي نراها في منامنا؟!

قال بعد أنْ أمضى بُرهة في التأمل والتفكير: هناك مفاتيح عامّة لتفسير الأحلام كما عند "فرويد" وتلامذته مثل العالمين: الدكتور "ألفرد إدلر" والدكتور "يونغ" وهذا الجانب تعرَّض لمراجعات من العصر الحديث حتى ليكاد وجود رموز عامّة للأحلام أنْ يكون مستحيلاً لأنّ أيّ حلم من أحلام الإنسان له مفاتيحه الخاصة، وهذا يتطلَّب أنْ يقوم الطبيب بجلسات تحليل نفسي شخصي كي يعرف العناصر المجهولة التي يمكن أنْ تساعده في تفسير الأحلام. ومن ناحية أخرى هناك طبعاً تأويلات خرافيّة لا يعوَّل عليها.

قلتُ: ثَمَّة مَنْ يفسِّر الأحلام وِفْقَ معتقدات خرافية، وهناك من يفسِّرها بواسطة مفاتيح الأشخاص (لكلّ مفتاحه الخاص) التي تؤثّر في أحلامه. وتعددت تفسيرات أبرز العلماء، فـ"فرويد"، مؤسس مدرسة التحليل النفسي، يرى أن الحلم انعكاساً سلبياً للرغبات، ويذهب "كارل يونغ Carl Jung" إلى أنّ الأحلام عبارة نشاط مستقل يعوِّض عن الرغبات ويحل صراعاتها كتعبير عن القدرة الذاتية للنفس على التعديل. ويفسر العالمان «آلان هوبسون J. ALLAN HOBSON" و"روبرت مكارلي Robert W. McCarley " الأحلام بأنها إشارات كهربائية غير منتظمة يمر بها المخ أثناء النوم ويقوم نتيجة لذلك بعرض مجموعة من الصور والمواقف المختزنة في الذاكرة ولكن بشكل غير منتظم، ويأتي دور العقل الواعي الذي يحاول وضعها في صورة منطقية منظمه عبر عرضها كقصة وهو ما نطلق عليه «الحلم».

لكنّ السؤال هو: كيف تنشأ الأحلام كظاهرة في حدّ ذاتها حيث هناك شخص يغطّ في نوم عميق ويرى أطْيافاً تبدو له حقيقية؟ أم هل نقول بالرمزية في الأحلام — كما قال بذلك ابن سينا والفارابي — إذ أنّ كثيراً مما يراه النائم هو عبارة عن رموز تشير إلى أشياء أخرى موضحين ذلك من الدور الذي تقوم به المخيلة في الحلم من محاكاة ما يقع على النائم من مؤثرات حسية بصورة محسوسة!.

قال مقاطعاً: ليس بنفس الجلاء والإدراك في اليقظة، فَقَوام الصورة في الحلم

كالضَّباب الخفيف الذي يحجب المرائي. وقليلاً ما يوجد في الأحلام "ديالُوغ" منطقي أو حديث فكري مُرتَّب، إنمّا الأحلام في الغالب هي صور وأصوات، أيّ كلمات ذات معنى لكنّها تجيء عَبْرَ إحالات وإرتباطات غريبة يحكمها العقل الباطن. وهناك أحلام ملوَّنة يكون صاحبها – في معظم الحالات – مجنوناً أو على حافة الجنون!.

قلتُ: ثَمَّةَ أيضاً أحلام تبدو جزءاً من الواقع لدرجة أنّ الشخص يستفيق منها فيشعر كأنّه يواصل وقائعها أوكأنّه خارج من "كابوس".

قال: "الكابوس" مسألة أخرى مختلفة رغم أنّه حلم. فالكابوس خوف قديم إنطمرت بواعثه في غَياهِبِ العقل الباطن إلى حَدّ القطيعة أو الانفصال التام عن الواقعة القديمة المحيطة بذلك الخوف. وهناك – من جانب آخر – الحلم المُفْزِع أو المُرعِب وهو لا يؤدي إلى اليقظة مِثْل "الكابوس". ومن الطريف أنّه عَبْرَ التاريخ "البيولوجي"، سواء عند الحيوان أو الإنسان البدائي أو المعاصر. فالقط يحلم دونما لغة بالصُّوَر والانطباعات الشعورية. والمرجَّح علمياً أنّ جزءاً كبيراً من الحيوانات يحلم، وبالذات الثدييات فمن المؤكَّد أنّها تحلم.

قلتُ: كيف يمكن أنْ نؤكِّد ذلك، فقد يكون الأمر مجرد تخمين؟ فعلى الرغم من أنّ دراساتٍ علمية أجريت في هذا الموضوع ولعل أشهرها الدراسة التي قام بها معهد MIT News، في الولايات المتحدة الأمريكية التي أثبتت أن الحيوانات تحلم، فالحيوانات – كما تقول الدراسة – لديها أحلام مركبة ومعقدة وهي تحلم بأحداث محددة من التي تحصل لها في اليقظة .

قال بإصرار: لا .. ليس تخميناً على الإطلاق، فهذا وارد في العلوم كحقائق مدروسة، وبالذات لدى الثدييات.

ثم صمت بُرهة وأضاف: إنّ بدايات التفكير والمعرفة في الدماغ الإنساني والحيواني كانت بالصورة وليس باللغة بل أنّ اللُّغة المدوَّنة كانت تصويريَّة في بادئ الأمر.

قلتُ، وقد التقطتُ منه مفتاحاً لمواصلة الحديث،: نعم. فهناك من يرى أنّ العلامات اللسانية ليست هي الوحيدة المتداولة في التواصل الإنساني، بل هناك عدد هائل من العلامات الأخرى، وإذا كانت اللسانيات هي التي تتكفل بدراسة أنساق اللسان، فإنّ العلامات الأخرى يتكفل بدراستها ما أطلق عليه "دي سوسير Ferdinand de Saussure " مصطلح "سيميولوجيا"، عندما يرى أنه بالإمكان تأسيس علم يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم – كما يقول "دي سوسير" – جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي جزءاً من علم النفس العام، ويطلق عليه اسم علم العلامات أو علم الإشارة "السيميولجيا semiology " يمكننا – هذا العلم – من معرفة ماهية العلامات والقوانين المسيرة لها .. وأنت الآن تربط الموضوع باللغة، فكيف يكون ذلك؟

قالَ وهو يستنشق الهواء الطَّلق: اللغة هي التي قلبت الموقف تماماً، فقد جاءت في غفلة من الطبيعة. إنها مكتسب وقَبَسٌ رَبَّاني لم يكن في طَيِّ الطبيعة المادية الصامتة إطلاقاً. والأبحاث العلمية الجديدة تقول إنّ اللغة تغيِّر وتزيد من تلافيف الدماغ أو ثناياه، وبالتالي تزيد من الحجم العام للدماغ السِنْجابِي، فاللغة إذنْ عامل خطير لم يكن في حُسبان الطبيعة الصامتة. إنّ ما أَوَدّ قراءة شَذَرات منه تُلائم موضوعنا مدسوس في الحقيبة، وبالمقدور تحت أنوار أعمدة الشاطئ أنْ نُطالع من الكويت في سلسلة "عالم المعرفة" ترجمة "زهير الكرمي" لكتاب " بنو الإنسان" الذي ألَّفه العالم الإنثروبولوجي"بيتر فارب Peter Farb" – نقلاً عن علماء الاختصاص– يقول: " الدِّماغ الإنساني يبلغ حوالي ثلاثة أضعاف حجم دِماغ الغُوريلا، رغم أنّ جمجمة الغوريلا تزن حوالى ثلاثة أضعاف وزن جمجمة الإنسان.".

قلتُ متداخِلاً: نعم، فحجم مخ الإنسان بحسب الدراسات العلمية يزن عند الإنسان البالغ مابين 1.300 – 1.400 جرام، بينما عند الغوريلا فهو يتراوح بين

450 – 465 جرام.

قال : نعم. هذا صحيح..

ثم تابع حديثه وقال: ويستطرد "فارب" مُدوِّناً : " إنّ الأبحاث العلمية الحديثة على كثرتها ودِقّتها لم تكشف بعد بالتحديد الطريقة التي يُحوِّل بها الدِّماغ طاقة لا تزيد عن 15 وات مع بعض الكيماويات في الدِّماغ إلى أفكار جديدة أو ذكريات تجارب سابقة أو عمليات فكرية خلّاقة أو شعور وعواطف وأحلام، وباختصار إلى وعي كامل ببيئتنا وأنفسنا.". ومن ناحية اللون الدّال يُلاحظ عُلماء الاختصاص شيوع اللون السنجابي أو المادة السنجابية في مُنخفضات التلافيف وفي كافّة مناطِق الدِّماغ الواعية والمشتغلة في عمليات التفكير وغيره.

قلتُ مناكفاً: إنّك يا أستاذ يوسف تخرج بنا عن اليقين!

قال وهو يلتقط سيجارة لينفثها: اليقين إذا جاء هنا بمعنى الجزم والقَطْع فهو العَماء، ثم ما هو هذا اليقين الذي تريد أنْ تَبْقَى في نطاقه؟! وأيّ يقين تَعْنِيه بعبارتك؟! نعم، قد يكون اليقين مُهِمّاً لراحة النفس لكنّه عَماء في الحقيقة لأنّ الفهم الموضوعي المستقلّ عن التعليلات الذهنيّة البَحتْ هو الأهم والأصح حيث يكون فحص الظاهرة ودراستها وتحليلها سبيلاً مأموناً للمعرفة المُبرهَن عليها. ولولا ذلك هل كان العالم كلّه سيكون مُنيراً بالكهرباء وبه السينما والتليفزيون، والقطارات والطائرات والسيارات والسُّفن العصرية والصواريخ والمَرْكَبات الكونية والطب المتطوّر والسدود الضخمة وناطحات السحاب والجسور والأنفاق و"الفتوغرافيا" و"الإنترنت". لقد قَلَبَ العلم حياة البدائيين والحيوانات، فالعصر الحديث هو عصر العلم.

قلتُ متدخِّلاً: لقد ذكرتَ أنّ اليقين هو العماء. هل تقصد أنّ الحقيقة عمياء؟

قال: لا..لم أقُلْ ذلك!. وقد ذكرتُ اليقين مشروطاً بمعناه في اللّغة، لكنّ الإدراك المعزول عن العلم هو تصوُّر ضرير لأنّه لا يترك البصيرة تبحث فيما حولها،

ويكتفي بإضفاء أوهام تجعل الأمور غير صحيحة. فالجبل أزل وأبد يستند على إدراك ثابت. وعندما يأتي العلم ويَكْسِر هذه المواضعات فيقول إنّ النهر ليس أزلياً وكذلك الجبل، وأنّ العالم لم يعد مجرد تلك المشاهد أو الظواهر السكونية، فهو لم يكن – دائماً – بذات الأنواع من الحيوانات وبنفس المناخ والبحار والتضاريس. فإنّ العقل الخرافي "الإستاتيكي" مريح جداً بَيْدَ أنّه أَعْشَى أو أعمى لا يرى هذه الحقائق أو يصدِّقها..

قلتُ: نعم! "هيراقليطس" ومقولته المشهورة: لا يمكنك أنْ تلمس مياه النهر في ذات الوقت مرتين! وأنني لا أريد أنْ أكون مثل "زينون" في نكران ذلك ولكن وكأنّي بك تربط العماء بالسكون.

فأجابني: بالتأكيد وبالخرافة أيضاً، وهذا بالضبط أحد أسباب "اندثار العقل الخرافي" وهو عنوان موضوع قدَّمته لحضرتكم كمقالة أو بحث قصير للإنترنت مُنذ زمن، سبع سنوات تقريباً، ثم نَشَرَتْهُ مجلة "المؤتمر" الأدبية مكتظاً بأخطاء مطبعية بشعة ومريبة!. إنّ عقل العالم الثالث – في معظمه – عقل خرافي في حين نجد أنّ العقل في العصر الحديث ذو طابع علمي. إنّه عقل مُقْتَحِم يختبر ويدرس مثلما يعيش الحياة بالطول والعرض صانعاً آفاق المستقبل الحقيقي للإنسانية.

قلتُ: لقد أشرتَ إلى أنّ الأحلام إذا جاءت بالألوان فهذا يَعْنِي خللاً ما وهل يمكن القول إنّ الإنسان أصلاً يعيش حالة حلم؟، أيْ أنّ الحياة هي حلم خاص لكلّ شخص وحينما يستفيق يكون الموت!

توقف الأستاذ يوسف فجأة عن الحديث وقد شعر بضرورة تدخين سيجارة أخرى في تلك اللحظات، فوضع يده في جيبه وأخرج علبة "السجائر" ثم أمسك بواحدة وكأنّه يقول لي: بعد هذه النقطة علينا أنْ نتوقف لإراحة الرأس.

قال: لقد سبق أنْ تناولتُ في الحديث مسألة الضباب الخفيف والرؤية في الحلم

والأحلام الملوَّنة. أمّا عن الحياة التي تتساءل هل هي حلم خاص لكلّ شخص، فمِما لا شك فيه أنّ المُخَيِّلَة أعرض وأكثر كفاءة من الحلم، وهي تشمل أشياء كثيرة مثل الأماني والرغبات والانطباعات الواقعية والخبرة بالحياة. كل هذا يجعل المخيلة تلعب دوراً كبيراً، وهذا قد يَدُلّ على أنّ الإنسان يعيش حلماً طويلاً أو طموحاً أو أماني.

هنا شعرت أنّه من الضروري أنْ نتوقف لحظات يتمكن خلالها الأستاذ يوسف من التدخين فقد أخذ الحوار يمتد ويغوص في قضايا الفلسفة العميقة التي هي أشبه ما يكون بأضغاث أحلام. فلعلنا بالفعل في حاجة ماسّة لاحتساء القهوة عسى أنْ نستفيق.

الوطن والوطنية

الناس والفن

الأستاذ يوسف القويري إلى جانب أنه كاتب وأديب فهو فنان صاحب صوت شجي ويتمتع بثقافة موسيقية واسعة، وقد لاحظت حبه للطرب والموسيقا العربية الأصيلة، فكلما أدرت في منظومة السيارة أغنية لأحد مطربي الزمن الجميل يمتنع تماماً عن الحديث ويصغى باهتمامٍ تام.. وتراه يتفاعل مع موسيقاها وألحانها فيغمض عينيه ويفتحهما وهو يهز برأسه طرباً، وأحياناً كنت استفز مسامعه بترديد بعض أغاني السيدة أم كلثوم فينظر إليّ بعطف وكأنه يقول لي ليس هكذا يكون الآداء ويتولى الغناء بصوته العذب الجميل..وما لا يعرفه الكثيرون عن الأستاذ يوسف أنه يعزف آلة العود بمهارة بل أنه تعلم عزف العود على يد الموسيقار الأستاذ "عبدالعظيم محمد" والذي كان يشغل أستاذ كرسي في معهد الموسيقى العربية "الكونسيرفتوار"..

قلتُ: كيف يرى الأستاذ يوسف مسألة الفن العربي الذي يُقال أنّه نشأ وترعرع في مصر؟!

قال: من المستحيل إنكار وضع مصر – أيام زمان – كمركز للإشعاع الفني. وقد كُنّا نرى في وادي النيل مستويين من مستويات الفن، المستوى الأول هو "الفلكلور"، الذي تتمّ تأديته في مقاهي الدواخل المغمورة، وأظنُ أنّ هذا اللون من الفنون انقرض حالياً، ومعلوم أنّ مقاهي القاهرة الكبيرة التي يرتادها الأدباء والفنانون لا تُقدِّم مثل هذه الفنون، فعادة ما تكون المقاهي المعنيّة مغمورة في دواخل مصر. وكانت تأتي في ذلك الحين فِرَق ليس لها أيّ علاقة بالأدوات الحديثة، يستخدمون "مزامير" ضخمة تكاد تصل إلى الأرض، وكان المزمار من الخيزران أو "البُوص"، ورغم أنها آلة بدائية فهي ليست سهلة إطلاقاً من ناحية تفاصيلها التي تشتمل على أشرطة دقيقة من لحاء القَصَب. وكانت تلك الفرق تغني داخل المقاهي أغاني وأناشيد مصرية فولكلوريّة صافية. لكنْ هناك ملحمة شبه إجبارية عن "أبوزيد الهلالي" وهذا يُجسِّد تاريخ مصر، وتاريخ المنطقة؛ تاريخ العباسيين، والمماليك، وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم. وهناك إدانة لأبي زيد الهلالي والهلاليين بصورة عامة لأنّهم تسبَّبوا في مشاكل كثيرة للخلفاء ولقبيلة قريش نفسها التي خاضت حروباً ضدهم بعد الإسلام حيث أتَعطَّل الحج لمدة عامين وحدثت مآسي كثيرة، وجميع كتب التاريخ تشير إلى المشاكل التي نجمت عن وجود عدد كبير من الهلاليين وِفْقَ ما ذَكَرَ مؤرخون كثيرون، مسلمون وعرب، وجميعهم أجمعوا على هذا مثل "المقريزي"، و"ابن الأثير" ..إلخ. وليس هناك مَن لم يُشِرْ بشكل أو بآخر إلى الهلاليين.. فلو قلنا "ابن خلدون" لوحده فمحتمل أنْ تقول بعض الأصوات المتهوِّرة إنه يكره العرب، لكنّ كافّة المؤرخين ذكروا ذلك التاريخ المأساوي.

قلتُ: هذا قد يلغي مفاهيم تكاد تكون متأصِّلة حول ملحمة "الهلالي"!

قال: الواقع أنّ تلك الملحمة ليست "مصرية" وليست من نسيج الشعب المصري. إنّها غريبة عنه من جميع الوجوه.

قلتُ: ألا ترى أنّك تربط الهلاليين برؤية تاريخية قد تكون هي المؤثِّرة في هذا التقييم

الذي تحدثنا عنه؟

قال: بديهي..فتلك الملحمة منقوعة في التاريخ المأساوي!. وليَكُنْ واضحاً أنني لا أتحدث عن الهلاليين ومشاكلهم، فهذه مسألة تاريخية لا أريد الاقتراب منها ولكنني أقترب من نقطة واحدة : هل أبو زيد الهلالي هذا منتوج فَنِّي في الفلكلور المصري؟ بالتأكيد لا، إنّه ليس مصرياً على الإطلاق ولا يعبِّر عن الشعب المصري، ويُقال بحسن نِيَّة إنّ الذي ألّفَ ملحمة "أبو زيد الهلالي" ليس عربياً. فمسارب الفلكلور المصري تظهر بوضوح، وحتى مَنْ ليس له أيّ خبرة في النصوص يقول إنّ الفلكلور مصري، وهو فعلاً مصري عن "أبو زيد الهلالي"، يُقال أنه صعيدي إلا أنّ "أبو زيد الهلالي" في حد ذاته ليس صعيدياً، وهذا يعني أنّ الفولكلور ليس مصرياً. يمكننا أنْ ننتقد ونحن في ذلك أحرار. ومن جانب آخر قد يظهر فنان أو مثقف من السعودية ويقول إنّ "أبو زيدٍ" هذا " بتاعنا"، فنقول له "مضبوط". ثمّ يظهر له مثقفون سعوديون آخرون ويقولون له: إنّ "أبا زيد الهلالي" هذا أتعبنا كثيراً، وإنّه كذا وكذا.".

قلتُ: إذاً أنتَ تقول أنّ المستوى الأول من مستويات الفن في مصر هو المستوى الفلكلوري وكانت تأديته في المقاهي.

قال: نعم ميدانياً في المجالات المعتادة كالأفراح والأعياد والمناسبات الاجتماعية، وهناك أغاني الفلاحين في السَّمَر تحت ضوء القمر بعد يوم حافلٍ وشاق.

قلتُ: السؤال يَبْقَى، مَن الذي ألّف تلك الأغاني والأناشيد والملاحم؟!

قال: لا أحد يعرف بالضبط أصحابها!. خذ مثلاً – هذه الأغنية المصرية الفولكلورية بلحنها الريفي البديع:

"لمِاّوِي، يا لمِاّوِي يالمِوِيَّه

خايفه أقول حَبِّيتْ تِلُومُوا عَلَيَّه

يا رايح قُول للجاي وقُول لحماتي

إبْنِكْ ضَرَبْ سِتْ البناتْ رُوحِيَّه..

وتوقف الأستاذ يوسف عن الغناء برهةً ثم واصل قائلاً: وخُذْ هذه الأغنية أيضاً، وهي ريفيَّة كالأغنية السابقة وأخذ يدندن..

هَلا بِالورد يا لَمَّا هَلا بَه

عِيشْ السُّوق يا مْسَلِي الغَلابَه..

قلتُ: من الذي أنتج هذه الأعمال المؤثِّرة، وهي أعمال بسيطة وممتعة؟ ومن الذي يقدِّم هذه الكلمات الجميلة وألحانها؟

قال: إنَّه الفنان المجهول، وهذا هو الفولكلور.

قلتُ: وماذا عن المستوى الثاني؟

قال: المستوى الآخر هو "الأغنية" المؤلَّفة والمُلَحَّنَة بأسماء معروفة، وقد انتشرت في العالم العربي ألْسُنِيّاً كالسينما. ومعروف أنّ اللهجة المصرية بسبب تلك العوامل أصبحت أكثر لهجات المجموعة اللُّغوية العربية الدَّارِجة وضوحاً في أذهان الناس، في حين أنّ الأغنية العراقية تحتاج إلى قاموس هو غير موجود أصلاً. والأغنية المصرية المنسوبة إلى أسماء وشعراء وموسيقيين كانت موجودة عندما كان هناك فنانون حقيقيون كـ"الحامولي" و"سيد درويش" و"عبدالوهاب" و"أم كلثوم" و"عبد العزيز محمود" و"نجاة الصغيرة" و"شادية" و"سيد مكاوي" وغيرهم. كان سيد درويش عالماً موسيقيّاً إستشف روح البلد وأضاف الربع تُنْ للبناء الموسيقي ونَقَلَ "الفلكلور" — نصوصاً ولحناً — إلى مستويات جديدة من المعالجة الموسيقية. إنّ الأغنية المصرية مرت بمراحل كثيرة، ثم جاءت نكسة تلك الأغنية مع الحروب والمِحَن الاقتصادية، فأصبح فنان مثل عبدالعزيز محمود الذي كانت تنهال عليه العروض والعقود على مدار الأربع وعشرين ساعة من السينما والإذاعة، نراه يضطر للتعاقد مع الفنادق للغناء مما يعكس المأساة الحقيقية، فعبدالعزيز محمود صاحب أغاني "منديل الحلو يا منديله، على دَقّة

قلبي بَغَنِّيلُه" و"يا تاكسي الغرام يا مْقَرَّب البعيد"، هذه الألحان الخفيفة هي لون من ألوان الأغاني التي لاقت شعبية واسعة.

إننا نجد مجموعة كبيرة من الفنانين عَبّرَ مراحل من الفن الحقيقي الذي داهمتها النَّكْسَة أو"الوَكْسَة" المتمثِّلة في إنحطاط الفن المصري. فآخر صوت غنائي أصيل هو صوت "عبدالحليم حافظ"، ويمكن اعتبار المطرب "هاني شاكر" الفونوغراف الأخير. وفي الواقع أنّ الفن"إتْوَكَسّ" و"راح في داهية" ودخلت موجة من الدَّق على "الطَّناجر" — أيّ أواني الطبخ الفارغة!.

قلتُ: هل تكوَّن جيل جديد من الفنانين يُضارع فيروز وصباح في لبنان وعُلَيَّة في تونس؟

قال متنهداً: لا، فلقد تأثَّرت الفنون في المنطقة العربية بشكل عام تأثراً شديداً بالضائقة الاقتصادية والحروب ومُتَّجه التغييرات في المجتمعات العربية، وأُصِيبَ الفن — نتيجة ذلك — بإنحطاط ملحوظ.

الوطن والوطنية

الطُربوش

في ذات مساء كنا قررنا أنْ نتمشى على مدى مسافة قصيرة بعد أنْ أوقفنا السيارة في محطة خاصة بوقوف المركبات الآلية أمام الفندق الكبير، وقطعنا الطريق مشياً بصعوبة بسبب حركة السيارات التي يكتظ بها الطريق العام المزدوج في كلتا الاتجاهين، وبعد معاناة الحذر والانتباه لهذا وذاك تمكنا من العبور إلى الضفة الثانية في اتجاه الفندق الكبير حيث ثمة "حديقة" كبيرة تمتد على مساحة مستطيلة كبيرة من قبالة الفندق الكبير إلى شارع البلدية. سرنا "الهوينة" ونحن نعبر هذه الحديقة الزاهية بالأشجار وتتطرفها نافورة لا تعمل وتنتشر فيها مقاعد خشبية وُضعت خصيصاً لراحة عابري السبيل والمتنزهين. وبينما نحن نتمشى بين معابر تلك الحديقة نظرت إلى الأستاذ يوسف وقلت: هل هي حديقة قديمة؟!

نظر إليّ وهو يحمل ساقيه بتثاقل وكأنه يقول كف عن هذا ثم قال: إلى حدٍ ما. كنت أتردد عليها أحياناً مع أحد الأصدقاء ونجلس هنا في هذا "السايد" — مشيراً

بيده إلى الجانب المطل على شارع البلدية – وكان الأستاذ "أحمد زارم" يأتي بعض الأحيان بطربوشه وخطواته الحلوة.

قلتُ مقاطعاً: "الطربوش"! يا له من مَعلم. هل تبقى في ذلك الوقت مكاناً لمثل هذا الزِي؟

أشار إليَّ أنْ أتّبعه وهو يتجه إلى أحد المقاعد الخشبية ليرخي نفسه جالساً، ثم أمسك بذراعي وشدني بلطف مومئاً إليّ بالجلوس ففعلت ثم قال: في الواقع هما طربوشان اللذان صمدا، "طربوش" الأستاذ "الفقى حسن" في الكتلة الوطنية و"طربوش" الأستاذ "أحمد زارم". والفرق أنّ "أحمد زارم" كان يأتي للجلوس في هذه الجهات – مشيراً إلى الجهة المطلة على الشارع الذي يفصل الحديقة عن طريق الشط – فهو جيل معتد وأصيل جداً جيل الرواد..

قلت متسائلاً: أيّ دلالة للطربوش؟ فكنا نسمع عن "الأفنديه" وكانت سماتهم لبس الطربوش..ما هو معيار الطربوش وما الذي يعطيه من دلالات؟

قال: في الواقع الطربوش يكاد يكون خاص بأوسع نطاق من مهنة معينة.. وخاصة المعلمين البشوات، الطبقات الاجتماعية الراقية، فكلمة يا أفندي في مصر غير كلمة يا أفندي في بعض البلدان الأخرى حيث تقتصر فقط على رجال الشرطة، نوع من الاحترام، لكن بالنسبة لمصر غير ذلك وأظن الحال كذلك في الشام.. ولها معاني أخرى فعندما يقول لك شخص مثلاً "يا أفندينا" فهي للتعظيم وهي بمعنى الحاكم بالمعنى القديم.

قلت بشيء من الفضول: هل حدث وأنْ لبس الأستاذ يوسف الطربوش؟

وضع كلتي يديه على رأسه وهو يمسح بشعره نحو الأمام ثم قال: بالطبع، في الأربعينات وفي بدايات الخمسينات.

قلتُ وقد شدني موضوع الطربوش: أريد أن أسألك عن الطربوش على اعتبار أنك عاصرت وجوده في العهد الملكي وعايشت الفترة الطويلة التي كان خلالها

منتشراً في مصر.

قال وكأنه يعود بذاكرته إلى وقائع تاريخية تعيده إلى أبعاد ذلك الموضوع: قصة غطاء الرأس في البلدان قصة تاريخية طويلة ومُشوِّقة، وهي زاخرة بتنوعات عجيبة. والطربوش غِطاء رأس له بدوره حكاية طويلة، وله أشكال وأنواع وأصول متشابكة داخل الأمْصار والإمبراطوريات في مَدِّها وجزرها وغرائبها التي يكاد أنْ لا يحصرها قول.

صَمَت الأستاذ يوسف قليلاً وهو يفكر بعمق ثم التفت إليّ قائلاً: الموضوع شيق ويحتاج الرجوع إلى بعض المراجع وأقترح عليك أنْ يكون لقاء الغد في منزلي حيث يمكننا الاستعانة ببعض الكتب ذات العلاقة التي تزخر بها مكتبتي المنزلية.

قلتُ مداعباً: إذاً عليّ أنْ أنام "جوعان" حتى أكون مستعداً لإلتهام وجبة العشاء الدسم.

ضحك ثم أمسك بكتفي بقوة وهو ينهض كما جلس بروية شديدة وقال ولا يزال ضاحكاً: لا داعي يا عزيزي يمكنك فقط أنْ تحُضر "تو هامبرجرز Two hamburgers" وهذا يكفي.

وقفت ضاحكاً بدوري وأكملنا المسير عائدين إلى حيث موقف السيارة ونحن نعلق على حركة السيارات التي توشك أنْ تطير.

في مساء اليوم التالي توجهت مبكراً إلى منزل الأستاذ يوسف بعدما أجريت معه مكالمة هاتفية أخبره أنني في طريقي إليه حسب الموعد ولكن بدون "الهامبورجرز". استقبلني بترحاب شديد وهو يوجهني إلى غرفة مليئة بالكتب، وطلب إليّ الجلوس وهو يقول: تفضل.. كما ترى هذه غرفة أخصصها للإطلاع والكتابة.

ثم أخذ يشير بيديه نحو أرفف المكتبة المكتظة وقال: هذا زادي يا دكتور.

قلت وأنا أبتسم: هل أفهم من ذلك أنّ الوليمة ستكون كُتباً؟

ضحك بصوت مرتفع وهو يقول: إذاً قبل أنْ نتعشى .. أتريد شاي أم قهوة؟!

قلتُ: أُفَضِّل الشاي بالحليب.

عاد إلى داخل أروقة المنزل يُحَدِث من هم في البيت وأخذتُ أنا أتصفح ما تحويه المكتبة من ثروة علمية وأدبية وثقافية. وبعد لحظات عاد الأستاذ يوسف يحمل كوبين من الشاي وجلسنا نتحدث في شأن المكتبة وما تحويه، وبعد أنْ أكملنا الحديث نظرت إليه ثم..

قلتُ: نعم يا أستاذ يوسف، الآن وبعد أنْ احتسينا الشاي وفي ضيافتكم الجميلة، فحوارنا هنا اليوم بناءً على رغبتكم لنكون بمقربة من ذخائر مكتبتكم النفيسة.. كنا نتحدث عن الطُربوش، وعن تلك الرؤوس التي صمدت تحمل الطرابيش؟!

قال: فلنتريث قليلاً!. لقد ذكرتُ في حديث الأمس أنني سأولي الطُربوش ذاته عناية كبيرة، فمن اللازم أنْ نفهم المصادر الجغرافية والتاريخية لنشأة الطربوش وأنواعه وكيفية انتشارها قبل أنْ نتحدث عن الرؤوس القليلة التي صمدت الطرابيش فوقها. وحين نعود إلى نصوص "السراج" الدقيقة والظريفة التي أوردها في "مذكراته" (وهنا قام الأستاذ يوسف بجلب الكتاب من مكتبته وبدأ يقلب صفحاته)، سنجد أنّه أَوْرَدَ نوعين متميزين، أولهما: الطُربوش التركي القصير الخالي من "شِنْوارَة الُصَكُل" أو "الزِّر"، وثانيهما : الطُربوش الأسطواني الطويل بـ"زِرِّه" الأسود الذي حَظيّ باهتمام فائق وسَرد تفصيليّ في نصوص "مصطفى السراج". ولا غرابة في ذلك فوالده وأعمامه كانوا يفضِّلون هذا النوع.. والفتى " مصطفى السراج" ذو المظهر الأرستقراطي كان مشغوفاً بهذا النوع من الطرابيش مُنذ دراسته في المدرسة الابتدائية وعمره حينذاك الثانية عشرة، وبحساب بسيط نستخلص السَّنة وهي 1928م، أمّا تفاصيل تنظيف الطُربوش فنستنتج أنّها كانت – لعدَّة اعتبارات – في ثلاثينيات القرن الماضي حيث من المرجَّح أنْ يكون ذلك مُوافِقاً لسنوات دراسته الثانوية في طرابلس الغرب. وقد حالفه التوفيق في إعادته لجميع أنواع الطَّرابيش إلى مصادر

يونانية قديمة ما عدا الطربوش الأسطواني الطويل بِزرِّه الحريري الأسود المفضَّل لديه هو ووالده وأعمامه!.. فنحن نلاقي — حتى اليوم — في فولكلور أو " كُرْنفالات" جُزُر" بحر إيجه بل في اليونان نفسها وفي البوسفور القريب من القسطنطينية القديمة — وهي إسطنبول المعاصرة — وفي ألبانيا ما يؤكد بالنسبة للزِّي وغطاء الرأس بالتحديد صحة تلك الأصول التي أشار إليها "السراج" في نصوصه. غير أنّ الطُربوش المفضَّل المُشار إليه لا يوجد بنفس الأوصاف في كلّ المهرجانات الفولكلورية التي ألمحنا إليها. وليست المسألة — على أيّ حال — تحويراً تمَّ إدخاله على هذا الطُربوش، إنمّا تتعلَّق المسألة بنشوء مستقل لطربوش "مصطفى السراج" وعائلته. وبديهيّاً، كان من غير المعقول أنْ يُرْهِقَ "السرّاج" نفسه باستقصاء الأصول التاريخية لهذا الطُربوش، مثلما لن يبحث أيّ رجل عصري ومتعلِّم للأصول التاريخية لل" بيجاما" التي يرتديها!. ولنقف هُنيهة عند عبارته التالية: " يتَّسخ بالغبار والعرق في حافته الملامِسة لمحيط الرأس" فلم تكن التحسينات أو التطوُّرات الخاصة بحافة الطربوش المطوِّقة لمحيط الرأس قد وصلت إلى طرابلس الغرب وهي وقتذاك سوق محدود جداً لهذا النوع من الطرابيش قليلة الانتشار، لكنّها — أيّ التحسينات على حافة الطربوش — كانت شائعة في مصر، وهي عبارة عن شريط جلد طبيعي رقيق جداً لا يتهدَّل عند الغسيل والكَيّ في المحل المخصَّص لذلك. واستطراداً نحن لإنصاف هذا الطربوش فوتوغرافياً أو تدونياً في الوثائق طَوال الفترة التركية العثمانية التي سد فيها الطربوش المخروطي الخالي من الزِّر الأسود الثابت في وجه النسيم. وتمتد هذه الملاحظة إلى ما بعد نُشوب الحرب الإيطالية — التركية — الليبية. ودليلنا على ذلك الصُّور الفوتوغرافية التي التقطها الكاتب الفرنسي الرحّالة "جورج ريمون G.RৠMOND" في الإيالتين الليبيتين سنة 1912م أثناء الحرب وألَّف حولها كتاباً هاماً صدرت طبعته الأولى في باريس عام 1913م بعنوان: داخل معسكرات تركية — عربية: ملاحظات مكتوبة من

حرب في قورينا وطرابلس غرب*[1] وظهرت ترجمته العربية عام 1972 عن دار مكتبة الفرجاني للنشر بعنوان: "من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا".

قلتُ: أنت هنا لا تكتفي بالحديث عن الطربوش بل وتصحح في المعلومات التاريخية، فالأمانة العلمية تقتضي تقديم المعلومات كما هي، وإنْ استدعت المسألة إحداث نوعٍ من التحوير فينبغي الإشارة إلى ذلك في ملاحظات المترجم أو الناشر. فلنتابع يا أستاذ يوسف..

قال: وطِيلة المدَّة التي عاصرها وصَوَّرها "جورج ريمون" لم يشذ عن نوع الطرابيش السائد سِوَى طربوش "محمد فرحات بك الزاوي" نائب طرابلس الغرب في مجلس (المبعوثان) العثماني، حيث تُظهره الصُّوَر الفوتوغرافية المذكورة بالطربوش الأسطواني الطويل في لقطة مع " سليمان باشا الباروني" وبجوارهما أحد ضباط القيادة التركية، وكذلك في لقطة أخرى مراسمية في ضاحية فندق "بن غشير" بطرابلس الغرب. أما الطربوش الأحمر بشياته الشبيهة بالأضلاع وبِزرِّه الأزرق الزاهي الذي يصل حتى أسفل "القفا" فقد جاء به "محمد علي باشا الكبير" من ألبانيا وإعتمره كغطاء رأس رسمي له مُنذ تولِّيه مقاليد الأمور في مصر سنة 1805م ثم استأنف هذا التقليد ابنه "إبراهيم باشا"، وبعد ذلك آثر الخديوات رسمياً الطربوش ذا الأصول التركية اليونانية. ومع الملوك مِنْ سُلالة أسرة "محمد علي باشا الكبير" وتحديداً مع الملك " فؤاد" أصبح الطربوش الأسطواني الطويل غطاء رأس رسمي له، وفيما بعد لابنه الملك "فاروق". وحيال هذه الحقائق التاريخية يتوجب علينا أنْ ننتبه إلى أنّ الطربوش الذي اختاره الملك "فؤاد" كغطاء رأس رسمي له ومن ثَمَّ لنَجْلِه الملك " فاروق" يعود إلى تاريخ أقدم من تاريخ اختيار الملكين له. وبنفس القَدْر من الانتباه ينبغي النظر إلى النشوء المستقل لهذا الطربوش الأسطواني الأحمر الطويل ذي الزِّر الثابت، ومن اللازم أنْ نُلْقِي أضواء على هذه النقطة في مجرى حديثنا أو حوارنا

1 *عنوان الكتاب باللغة الفرنسية : AUX CAMPS TURCO-ARABES:NOTES DE ROUTE ET DE GUERRE EN CYRENAIQUE ET EN TRIPOLITAINE"

هذا.

قلتُ: نعم، ذلك يلزمنا للتوضيح والاستزادة على الأخص إذا ما عرفنا أن "محمد على باشا الكبير" عندما اعتلى العرش كان معمماً، يضع العمامة، والتي كانت صفة الأعيان، في الوقت الذي كان فيه عامة المماليك يضعون على رؤوسهم "القاووق" وكما ذكرتم في إشارات "السراج" فهو يعيده إلى الأصول اليونانية فما مدى صحة ذلك إذا ما عرفنا أن محمد علي باشا الكبير الذي ينحدر من الأصول الألبانية لم يرتد الطربوش إلا بعد توليه سدة الحكم بفترة قصيرة.

قال مسترسلاً: من المعروف أن جزيرة "كِريت" كانت تابعة لمصر من سنة 1830م إلى سنة 1840م أثناء عهد "محمد علي باشا الكبير" وخلال الحكم المصري للجزيرة الذي دام لمدّة عشر سنوات تمّ إنجاز مشروعات كثيرة، ونَعِمت جزيرة "كريت" في تلك الفترة باستقرار أمني ونشاط اقتصادي فائق كانت له أعمق الآثار على حياة أهل الجزيرة وسكانها عموماً، وذلك باعتراف المؤرخين والبحّاثة اليونانيين مِثْل "باباداكيس" وبشهادات الرحّالة الأجانب من الإنجليز والألمان والفرنسيين وغيرهم. وفي تلك الآونة الزاهرة أقامت مصر مَعامل حديثة التقنيّة في "خانِيّا" العاصمة ومدينة " رِيثْمِنوس" للكروم الحمراء لإنتاج مواد صباغة الطرابيش. وشَيَّدَت في مدينة "إيراكْليون" معامل ومصانع لاستخلاص ومعالجة "اللبّاد" – وهو النسيج الأساسي للطرابيش – ثُمّ تصديره إلى مصر. وقد سبق أنْ أشرنا إلى أنّ الطُربوش الأسطواني لم يظهر إبّان حكم "محمد علي باشا الكبير". وعلى الأرجح أنّه نشأ– كابتكار مصري في أغطية الرأس– في أواخر عهد "الخديوي إسماعيل"، وذلك دون أنْ يتَّخذه "الخديوي إسماعيل" أو "الخديوي عباس" بديلاً لغطاء رأسيهما الرسمي. ولكنْ من المؤكَّد أنّ الطربوش المذكور ظهر قبل ثورة 1919م الوطنية بحوالي ثلاثة عشر عاماً أو أقل. ومعلوم أنّ العلاقات الإنسانية – كالمصاهرة ورفقة العمل – وكذلك العلاقات النفعيَّة بما تتضمَّنه من متاجرة حرّة بين مصر وكريت استمرت باضطراد في النصف الثاني

من القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين على نفس الوتيرة دون أنْ تتأثر بالانسحاب الرسمي المصري في أواخر1840م، وحتى في أعقاب الحروب التي نشبت بين "محمد علي باشا الكبير" حاكم مصر وبين العثمانيين واستيلاء مصر– خلال تلك الفترة – على سوريا التي كانت ترزح تحت كابوس سلاطين تركيا العثمانية، وبالرغم من الردع الدموي المتعصِّب الذي مارسته الإمبراطورية العثمانية في "كريت" فقد بقيت المبادلات الاقتصادية الحرّة والتأثُّرات الأخرى سارية بين المصريين والكريتيين، كما أنّ هزيمة العثمانيين في سوريا وبلوغ مصر إلى هنالك في القرن التاسع عشر يفسِّر لنا ظهور الطربوش الأسطواني– وهو ما يعنيه أمره – في أرجاء سوريا ورقاع أخرى من الشام بعدما أدخل عليه السوريون تحويرات غير جوهرية، أو بتعبير أصح – أضافوا إلى الطربوش حول قاعدته المُلامِسة لمحيط الرأس شريطاً من القماش يلتف مرّات عديدة حول تلك القاعدة من الخارج فيبدو للرائي طربوشاً ذا عَمامَة!. ومازال ذلك الطربوش المضاف إليه مرئياً حتى الآن في سوريا ولبنان. وبالنسبة لجزيرة "كريت" نرى في الصُّوَر الفوتوغرافية الطربوش الأسطواني على رؤوس قسم من السكان الأصليين والمقيمين، ونشاهد أيضاً صُوَر الجنود بالطرابيش الأسطوانية. وقد توفَّر هذا التوثيق الفوتوغرافي في كتاب عالم الآثار الإيطالي "جوزيبي جيرولا" المعنون بـ" آثار في كريت" وهو بانوراما ضخمة تُسجِّل بالصورة والتدوين مشاهد متباينة للحياة اليومية هناك من سنة 1905م إلى سنة 1932م. ويُتيح لنا الباحث الإنجليزي "تِريفُور باني" في كتابه:" مُخَيَّم في كريت" الصادر سنة 1913م فرصة لاقتناص عدد كبير من أنواع الطرابيش وأغطية الرأس ومنها الطربوش الأسطواني.

الحديث مع الأستاذ يوسف مشوق ولكن الوقت دائماً يفرض معاييره، فالأستاذ يوسف يحرص على تدقيق البيانات والمعلومات التي يقدمها وهذا يستغرق منه الوقت وهو يتصفح الكتب والمراجع. أكثر من خمس ساعات أمضيناها في هذا

الحديث الذي لم يكتمل.. وحينها قررت أن نكتفي بما تضمنه الحديث وعدت أدراجي وقد "شبعتُ" معرفةً ولكنني أتضور جوعاً أبحث عن "ون بورجر" فلم أجده، فالجميع أقفل أبوابه.

عدت إلى منزلي والجميع نيّام ومع كسرة خبز وبعض بقايا الطعام قررت مناجاة النفس بالبحث عن المزيد من المعلومات عن "الطربوش" ولكن هذه المرة مع "الانترنت". ومع غـزارة المعلومات التي تحتويها شبكة المعلومات فلم يحظ "الطربوش" بأيّ من الدراسات العلمية أو البحثية المعمقة، فكل الذي هنالك مجموعة من المعلومات التي ينشرها أفراد في صفحات متناثرة هنا وهناك، البعض فيها يرى أنّ الطربوش أصوله يونانية وأخر يرجع جذوره إلى الأتراك فهم الذين ربطوا مكانته بالأعيان، بينما هناك من يرى أنّ الطربوش أصوله وجذوره مغربية وقد انتشر منها إلى الأتـراك، فالطربوش باللغة الإنجليزية والتركية وكذلك الفرنسية يطلق عليه "FEZ" والتي تعني مدينة "فاس"..وكما لا حظنا أن الأستاذ يوسف يريد أنْ يعيده إلى المصريين.. ورغم عدم اتفاقي معه في دقة هذه المعلومة، إلا أنني أقر بأنّ المصريين – ربما – كانوا أكثر من أعطى مكانة اجتماعية للبس الطربوش، فقد كان يرتبط بالبشوات والأفندية وطبقة البهوات والمتعلمين من أساتذة وتلاميذ..الخ.

كما أنّ الطرابيش – وبحسب ما قرأتُ – أنواع من حيث المادة الخام، ومن حيث الشكل والتصميم. ويختلف في شكله من منطقة إلى أخرى.

والطريف في الأمر أنّ الأتراك الذين أضفوا المكانة للبس الطربوش هم من وضع حداً للبسه فقد أصدر "أتاتورك" سنة 1925 قانون القبعة الذي يمنع لبس الطربوش وغيرها من قلنسوات الرأس والعمائم وفرض عوضاً عنها لبس القبعة في تركيا والمناطق التابعة لها. ويروى عن "اتاتورك" أنه في أحد الاحتفالات الرسمية للدولة التركية سنة 1932 كان السفير المصري إلى تركيا "عبدالملك حمزة" يحضر الحفل مرتدياً الطربوش، فطلب منه أتاتورك أن ينزع الطربوش

بل وتمادى في أنّ طلب من أحد الخدم القيام بأخذ الطربوش، فقام السفير طواعية بنزع الطربوش.. وبحسب الروايات أنّ أتاتورك قال للسفير المصري: قل للملك أنني أنا كمال أتاتورك أصدرت أوامري لك أنْ تنزع الطربوش من على رأسك. وقد تسببت هذه الحادثة في توتر العلاقات بين البلدين لفترة لم تدم طويلاً حيث يُقال أنّ "أتاتورك" قدم اعتذاراً رسمياً بالخصوص إلى السفير المصري شخصياً والى الدولة المصرية. ويُروى أنّ أتاتورك في اعتذاره للسفير المصري قال له: "أنت مصري وأنك حر في لبس ما تشاء على رأسك" وداعبه قائلاً:" في الاحتفال القادم إذا لم تلبس الطربوش فسوف أكتب أنا مذكرة إلى الملك أخبره بذلك".

نعم فكما لحظنا فقد أوشك الطربوش أن يتسبب في إشعال نيران حرب بين البلدين فهو في ذلك أسبق من مباريات كرة القدم. لقد شكل الطربوش رمزاً للسيادة السياسية والاجتماعية في عديد من الدول والمناطق خاصة تلك التي ارتبطت بالحكم التركي. وعلى الأخص في بلاد الشام حيث شكل الطربوش أحد سمات الزِي الوطني في تلك المنطقة، وكذلك في مصر التي ارتبط بها كما ذكرنا سلفاً بالمكانة الاجتماعية وهذا ما جسده الروائي المصري الفرنسي "روبير سولي Robert Solé" في روايته والمعنونة "الطربوش، حكاية الإنتماء الضائع"، والتي جسد من خلال الطربوش المزج الثقافي والاجتماعي بين المسيحيين السوريين الذين فروا من سوريا تحت وطأة أعمال البطش والعنف التي تعرضوا لها وجاءوا ليستقروا في مصر مشبعين بالثقافة الفرنسية، وكيف عاش الطربوش في مصر زمن الباشوات والبهوات، وبحسب "روبير سولي"، فإن الذي أدخل الطربوش إلى مصر هو ابراهيم باشا رائد الحداثة في مصر والذي وضع حداً لتمادي العسكر وأدخل العديد من التحسينات في نظم الحكم والقضاء.

وفي مسار البحث على شبكة الإنترنت كان من ضمن المواد التي أظهرها البحث أغنية "الطربوش" وهي أغنية عريقة للفنان اللبناني الكبير شمسي نصر الدين،

فقررت الاستلقاء وأنا استمع إلى كلماتها المصحوبة باللحن الجميل للموسيقار الكبير ملحم بركات، وتذكرت حينها أغنية دويتو للفنانه المصرية سعاد محمد والفنان الكوميدي المصري إسماعيل ياسين "عاوج الطربوش على ناحيته.. وما حدش قدّه".

جُمَل إعتراضية

ضمن الأحاديث التي أجريتها مع الأستاذ يوسف القويري كانت ترد بين الحين والآخر أسماء لبعض الشخصيات الأدبية والثقافية سواء الليبية أو غيرها، وبعض الموضوعات – وذلك ضمن سياق حديث الأستاذ يوسف في مجمل المسائل التي كنا نتناولها في حواراتنا، ولم تكن في حد ذاتها موضوعات للحوار، وإنْ كان في واقع الأمر أنها تشكل في حد ذاتها مشروع عمل منفرد لكل اسمٍ من تلك الأسماء والتي هي لقامات هامة في حياتنا الأدبية والثقافية، أو لتلك الموضوعات.. سأكتفي هنا بوضع تلك – الجمل الاعتراضية – تماماً كما وردت. ورغم أن الأستاذ يوسف لم يكن يحبذ نشر هذه المقتطفات لما قد يفسره البعض من تقصير يشوبها في عدم إعطاء تلك القامات والموضوعات حقها الذي تستحقه، ولكنني وحرصاً على الإستفادة من ما حوته وإنْ كانت مقتضبة رأيت نشرها موضحاً حقيقة أنها وردت بشكل إعتراضي.. وقد قمت باشتقاقها وعنونتها بحسب أسماء أصحابها..وموضوعاتها

1 القويري وأخرون

الأستاذ كامل المقهور..

معرفتي بالأستاذ "كامل المقهور" — رحمة الله عليه — باعتباره أحد أساطين القانون في ليبيا.. وقد أخَذَته المحاماةُ عن الأدب حيث أنّ معظم وقت الرجل كان منصباً في الجهود المبذولة في التشريع والقانون في ليبيا. ورغم الأعباء الكثيرة له، لكن كان ثمة وقت خصصه للكتابة الأدبية والتي هي جوهر الوجود الحقيقي له.

إنّ إسهامات "المقهور" متعددة و"بانوراما" كبيرة. وتعود معرفتي بالأستاذ كامل المقهور إلى سنة 1957، في تلك الفترة كانت الصحف التي تصدر محدودة جداً، ومع ذلك كان لها نبض، وكانت هناك الكثير من المجادلات الأدبية والمساجلات الثقافية حول الأدب الليبي والثقافة الوطنية. وأذكر أن ثمة مساجلات كانت على صفحات الصحف كما في جريدة " طرابلس الغرب" وين التيارات الأدبية التي تطرح بشكل ديمقراطي وجميل جداً على تلك الصحف، الأستاذ "عبدالقادر أبو هروس"، والأستاذ "كامل المقهور"، وكان هناك مناقشات حامية ولطيفة واشتركت فيها جريدة "فزان"، وكان الأستاذ" الطشاني" يطلق تسميات على كل كاتب وبشكل مرح، على أحدهم "ايزنهور" وعلى آخر "خرتشوف"، وكان الجو

ودياً وحلواً.

وحول المقهور هناك فصل قمت بنشره في مجلة "المؤتمر" حول مجمع اللغة العربية تناولت فيه المجمع بعد وفاة المقهور، وقد كتبت عن الأستاذ كامل المقهور بحميمية حقيقية عن وتر من أوتار نفسي.

الشيخ علي مصطفى المصراتي....

يحلو لي كثيراً ويشرفني التحدث عن الشيخ "المصراتي"، وهو علامة بارزة من علامات الثقافة الوطنية ومن علامات الكفاح الديمقراطي، الكفاح العلني وليس السري، وكان هذا النوع من الكفاح يُتيح له الظروف الناضجة داخل ليبيا قبل الاستقلال، حيث إنّ هذه الظروف أتاحت طفو أحزاب سياسية، وبالتالي أتاحت سلامة العمل الديمقراطي، ولو أنّ هذه الأحزاب استمرت بعد الاستقلال كان الظرف السياسي سيكون مختلفاً تماماً، ولكن للأسف انتهت هذه الأحزاب بعد أنْ أدت دورها العظيم والرائع قبل الاستقلال، فأتيح للشيخ "علي" أنّه وجد مناخاً ديمقراطياً يناضل من خلاله من داخل حزب سياسي علني وسط الجماهير. لو كانت هذه الأحزاب غير موجودة لكان العمل الديمقراطي أصبح معقداً جداً بل مستحيل وسط جماهير غير مصقولة.

ولو لم تكن الأحزاب السياسية ناضجة وقائمة، لكان العمل ليتم من خلال اللجوء إلى العمل السري والذي كان سيكون صعباً جداً. الجانب الثاني هو الإسهام الكبير والمرموق والمعروف من رجل متعدد الاهتمامات – كما يُقال – وكما هو واقع الأمر لا يعمل في مجال واحد من مجالات الأدب والثقافة، بل له "بانوراما "عريضة جداً.

الصادق النيهوم..

شاءت الأقدار أنْ ألتقي بالأستاذ "الصادق النيهوم"، وكان ذلك في بنغازي، وقبل إذن كان يحدثني عنه المرحوم " رشاد الهوني"، وكانت جريدة "الحقيقة" التي يصدرها المرحوم "محمد بشير الهوني" والتي كانت تصدر أسبوعياً قبل أن تصبح يومية، كان مقرها بشارع "عمر بن العاص"، ولم تكن بالمبنى الجديد الذي اختاره فيما بعد وقام ببنائه على شكل "ماكيت" لصحيفة أخبار اليوم في حي "البِركة"، وكانت شقة جميلة جداً وكان العصر الرومانسي لجريدة الحقيقة، وكانت عائلة الأستاذ "الهوني" تقطن نفس العمارة ولديهم "أستوديو" للأستاذ رشاد، وقد أصر "رشاد" ومنذ قدومي لبنغازي على تهيئة كامل ظروف التأليف والعمل داخل دار الحقيقة، فأخبرني أن هذه الشقة"الأستوديو" قد تم تهيئتها "لك"، وهي "استوديو" لطيف جداً بجانب الديوان الملكي السابق.

كان رشاد يحدثني عن صديق له يعيش في القاهرة وأوروبا وبينهما مراسلات شبه أسبوعية، تصل أحياناً إلى ثلاث رسائل في الأسبوع، وكانت رسائل "النيهوم" تتميز بأنها رسائل أدبية تجد فيها أن النفس الخاص ينقلب إلى فن، فقد كان " رشاد" يقرأ لي بعض هذه الرسائل ويحدثني كثيراً عن النيهوم لأنه —أي رشاد — كان مرحاً جداً، وكان يقول لي "يجي منه". وكان في تلك الفترة بدأ في نشر مختارات من تلك الرسائل، وأحياناً كان ينشر بعض تلك الرسائل بالكامل في بابه " الأسبوعيات" في الصفحة الأخيرة.

ذات يوم دخلت إلى مقر الجريدة ووجدت مكتبي والذي كان عبارة عن دار خُصصت لي والتي بها "انتريه" — مدخل — ومكتب صغير مريح، وكن من المكتب بوفيه متكامل، وجدت شخصاً متكئاً على مكتبي وأمامه أوراق ويكتب بطريقة غير عادية، مستحيل أن يكون شخص يكتب رسالة، فهذا الاستغراق لا يمكن أن يكون إلا لدى شخص له علاقة حميمية جداً بينه وبين ما يكتب. وهذا ما لا يمكن أن يكون إلا لمن

يكتبون بصدق ولديهم ملكة خاصة.

ترددتُ في إبداء أي ملاحظة حول وجود هذا الرجل في مكتبي وكان يقف خلفي الأستاذ رشاد الهوني وإذا به يقول لي:

- أقدم لك صديقنا "فلان الفلاني"..

ومنذ ذلك الحين تكوّنت بيننا العلاقة، ثم جاء لحضور مؤتمر الأدباء قبل "انقلاب 69"، وذكر أنني والصادق نتجول نبحث عن أول ديوان للشاعر المرحوم "علي الرقيعي" كواحدٍ من أصواتنا الناضجة والذي اختطفه الموت في وقت مبكر في عز الصبا والشباب. لم نجد الكتاب في المكتبات فقلت له ربما أجده لك في مكتبتي – وهي مكتبة دائماً يستعير منها الأصدقاء – وكانت لدي شقة صغيرة فوق مقهى "الأورورا"، وبالفعل عثرنا على الكتاب وعدنا به وكان الكتاب من مستلزمات المؤتمر.

خليفة التكبالي

تعرّفت على "خليفة التكبالي" منذ بداياته الأدبية المبكِّرة قبل سفره إلى أوروبا، فقد قرر فجأة السفر إلى ألمانيا بحثاً عن تجارب جديدة تُزوِّده بفهم أعمق للحياة، وبدا لي ذلك شبيهاً بما فعله الروائي الأمريكي "جون شتاينبك John Steinbeck"[1*] الذي سعى لاكتساب تجارب جديدة ومعرفة أكبر للحياة تعاونه في التدوين الأدبي. أمّا بالنسبة للأعمال اليدوية أو الأشغال ذات المستوى غير المناسب فنحن نجد أنّ "هُوَشِي مِنّه" كان يبيع الجرائد في باريس ومع ذلك كان طالباً في المدرسة الفرنسية.

وظهر"التكبالي" مع القصة القصيرة، وشأن أيّ كاتب حقيقي، تبلور اسمه بالتدريج في سياق إنتاجه المتَّصِل المنشور في الصحف ومع نشر مجموعته

* [1]كاتب أمريكي مشهور، من أشهر أدباء القرن العشرين، حائز على جائزة نوب للآداب لسنة 1962 – المؤلف.

الأولـى ، وينبغي أنّ لا ننسى أجـواء الحرية المحيطة التي وفّـرهـا عهد الاستقلال، فلم تكن هناك أيّ ضغوط من داخل الدولة على النشر عموماً وحتى في صحفها الرسمية.

وفيما بعد فاز " التكبالي" نظير مجموعته القصصية بجائزة اللجنة العليا للآداب والفنون. وعنوان المجموعة (تمرد). وأذكر أنّه بعد عودته من الخارج بفترة التحق بالكلية العسكرية وتخرّج منها ضابطاً في الجيش الليبي خلال العهد الملكي.

فاضل المسعودي..

معظم إنتاج الأستاذ فاضل المسعودي في الصحافة الليبية، على سبيل المثال في جريدة «الليبي» وله فصل في جريدة الميدان ونشبت بينه وبين الأستاذ «محمد عمر الطشاني» خلافات دونت سجالاً بينهما وهي من أهم ما يمكن تدوينه. ولو جُمع هذا الإنتاج لقدم مادة هامة للمنشغلين بالصحافة والثقافة معاً.

كاظم نديم

إنه من المؤثر جداً أن نتحدث عن الفنان كاظم نديم بعد موته. وكم كان أقل إيلاماً للقلب ومثار للبهجة أن نتحدث عنه في حياته. على أيّ نحن لم نقف أو ننتظر بلا مبالاة عبر الخمسين سنة الماضية للجهود العظيمة للفنان كاظم نديم ورفاقه مثل الأستاذ «محمد مرشان» الذي قام باستقرار أو النهل من مناهل «الفلكلور» وهو يطمح لتطوير الجملة «الفلكلورية» وتطعيم الألحان والموسيقى والأغاني الليبية بها، والأستاذ «الدهماني».

في الحقيقة لنا ذكريات بعيدة جداً تعود إلى العام 1957 حيث كنّا نغني كثيراً. وحيث كان المطربون يقومون بتأدية أغاني كاظم نديم، تلك الأغاني التي لم تذع في

الإذاعة وكنا نفعل ذلك على شاطئ البحر وتحديداً في مصيف «الليدو» بطرابلس.

إنّ «محمد مرشان» و«كاظم نديم» و«الدهماني» وفنانين آخرين يشكلون الكوكبة التي ظهرت مع نشوء الدولة الليبية بعد الاستقلال وانتزاع البلد لحريتها الدستورية.

وكما قلت كم كان بالود أنْ نتحدث عن الفنان الكبير كاظم نديم في حياته حتى لا نُتهم بالولولة أو تذكر الرجل بعد موته ونحن لم نرتكب هذه الجريرة وكنا دائماً متفهمين لهذه الاتهامات.

آخر ما كان يشغل بال الفنان كاظم نديم كثيراً — في ذات الوقت الذي يكتشف فيه حناجر جديدة — أن يقوم بصقلها وتدريبها وإعدادها لكي تُطرب الناس وتساهم في النهضة الفنية في البلد وكان يفكر في ذلك بشكل حميمي جداً، فقد أبدى كثيراً من الملاحظات والتي لم تعرها الإذاعة اهتماماً ومثال ذلك ما أطلق عليه «أنيميا» الموهبة وبالذات الموهبة الغنائية داخل ليبيا حيث الوسط لم يتمدن بعد حيث كان يُنظر إلى المطرب باعتباره «ذَنْب» أو «إثم» أو «رجس من عمل الشيطان» وكان هذا بالنسبة للذكور وما هو أسوأ بالنسبة للإناث. لا تزال النظرة التي هي في أرض محايدة حيث يظل المواطن الليبي يحمل «إرث» النبذ القديم لأن تغني السيدة أو الإمرأة وأنّ التطلع إلى الجديد في هذا الشأن لا يزال «محلك سر».

لقد كان كاظم نديم على دراية دقيقة جداً بالصعوبات التي تجابه العمل الفني في وسط يعمل الكل من أجل تمدنه خاصة الأكاديميون والمصلحون الاجتماعيون والشبيبة المستنيرة وثمة قوة كبيرة تعمل في هذا الاتجاه.

معين بسيسو

تأتي علاقتي بـ«معين بسيسو» ضمن العلاقات الثقافية بإعتباره شاعر كبير في المنطقة العربية ومشتغل بالشؤون الثقافية والترجمات، والإسهامات النقدية، ومن أعماله الهامة في الشأن الليبي الكتاب المغمور بالنسبة للأوساط الثقافية الليبية

والذي تناول فيه الشعر الليبي وبدقة، وهو كتاب « دراسة في الشعر الليبي».

وكان – رحمه الله – يترجم بقدرة عالية، ومن خلال الترجمة يفتح نافذة على متواليات ومستجدات الأوساط الثقافية في أوروبا والعالم، وأحد هذه الأعمال التي وضعها ضمن "سكة" الموجة الواقعية في السينما الايطالية، ترجمته لحديث طويل جداً للمخرج الايطالي المعروف بنزعته الواقعية......

وقد قدم "بسيسو" ما يمكن أنْ نطلق عليه "سبق صحفي"، فقد التقى بالشاعر الروسي "أوفشنكو" المعروف بشعره الرائع وأدائه المتميز والذي أثر في شعراء عرب كبار يحاكونه في طريقة الإلقاء التي أخذها بدوره عن التراث الهندي. فقد حدث بين الشاعرين تجاذب وصداقة، وأجرى "بسيسو" مع الشاعر الروسي حواراً متميزاً، وكانت هناك قصيدة لم ينشرها "أفشنكو" في ذلك الوقت حتى في روسيا ، وقدمها لـ"معين بسيو" الذي نشرها باللغة العربية قبل أن تُقدم في العالم كله، وكانت هذه القصيدة بعنوان " عندما ينضج الحب"، وقد أشرت في حديثي المطول معه إلى ذلك والذي نُشر حينه في صحيفة "الميدان"، وقد ثبتُ هذا الحديث ودخل ضمن فصول أحد كتبي "تثاؤب الشرق". وقد تناول الحوار كل ما يدور في المجال الأدبي العربي مع إطلالات إلى النطاق الأشمل – العالمي – والثقافة الإنسانية.

عبدالوهاب البياتي..

تمت دعوته من قبل صحيفة "الحقيقة". وفي حفل أُقيم ضم نخبة من أبرز الشعراء والأدباء العرب والحركة الأدبية الليبية، نظم الحفل في فندق الودان بطرابلس. وبعد الحفل إلتقيت البياتي في منزل الأستاذ "محمد الهوني" وواصلنا الحديث معاً إلى ساعات الصباح الأولى وكانت معنا ضيفة كاتبة أمريكية وعلى ضوء هذه الجلسة كتبت الشعر قبل الفجر والتي تضمنها كتاب "الكلمات التي تُقاتل"، وهو شعر نثري، وإنْ كان عنوان الكتاب يوحي من الوهلة الأولى أنّه كتاب ساخن"مُجَنْزَر" أو موسيقى نحاسية، والواقع أنه كتاب هادئ جداً وبعيد كل البعد عن الصراعات، وهو كتاب غير حربي، وإنما كتاب للإقناع ولا يهاجم بقدر ما يحلل.

2 كتاب "ساقط قيد"

خلال أحد موضوعات حواراتنا تطرق الأستاذ يوسف إلى موضوع كتاب كان قد أسهم في كتابة تقديمٍ له، وهو يستغرب كيف أن مثل هذا الكتاب لم ترد الإشارة إليه ضمن أيّ من المدونات التي شملت الكتب التي صدرت في ليبيا خلال مسيرة الطباعة والنشر..

وعن ذلك يقول الأستاذ يوسف:

في حفل تكريم للأستاذ محمد الصالح الصديق الكاتب والباحث الجزائري القديم وحيث غطى حفل التكريم المجلات الثقافية في الكويت وبالذات مجلة العربي. هذا الحدث استرجعت به شيئاً له علاقة بالموضوع.

كان الأستاذ محمد الصالح الصديق هو المسؤول في واقع الأمر في الخمسينات عن مكتب جبهة التحرير الجزائرية في طرابلس – ليبيا – وهي طور من أطوار السفارة أو مكتب العلاقات في طور أن الدولة لم تستقل بعد، ففي ذلك الأوان صدر كتاب مشترك بين الأستاذ "محمد الصالح الصديق" والأستاذ "فاضل المسعودي". اشتركا معاً في تأليف كتاب بعنوان (صور من البطولة في الجزائر) وطُبع في مطبعة

طرابلس الحكومية على ورق خشن يشبه ورق البقالين وغلافه ورق "كرتون" رمادي كدخان المعارك — كتاب كفاح — وخصص الكاتبان ريع الكتاب وإيراداته لصالح الثورة الجزائرية، وتو زع الكتاب بشكل كبير.

وبعد مرور خمس أو ست سنوات تقريباً قامت مؤسسة (روز اليوسف)عن طريق سلسلتها الشهرية "الكتاب الماسي" وبالاتفاق مع المؤلّفين بإصدار الكتاب مرة أخرى وهذه المرة تم إحداث تغير طفيف في العنوان ليصبح (**قصص** من البطولة في الجزائر) وكان حجم الكتاب أكبر عنه في الطبعة الأولى بعد أنْ أضاف المؤلفان على مادته. كان المؤلفان — في الطبعة الأولى — طلبا مني أنْ أُقدم للكتاب، فكتبتُ مقدمة قصيرة لتلك الطبعة، وفي الطبعة الثانية المُنقحة طُلِب مني كذلك الكتابة لها فكتبت مقدمة طويلة لهذا الكتاب الذي صدر في سلسلة "الكتاب الماسي" في القاهرة في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات.

والغريب في الأمر أنني بالبحث في جميع القوائم الخاصة بالإصدارات المطبوعة في ليبيا والإصدارات الليبية عموماً، لم أجد أيّ إشارة لهذا الكتاب وكأنه ساقط قيد، وهذا شيء مؤسف.

2 مقاهي أيام زمان

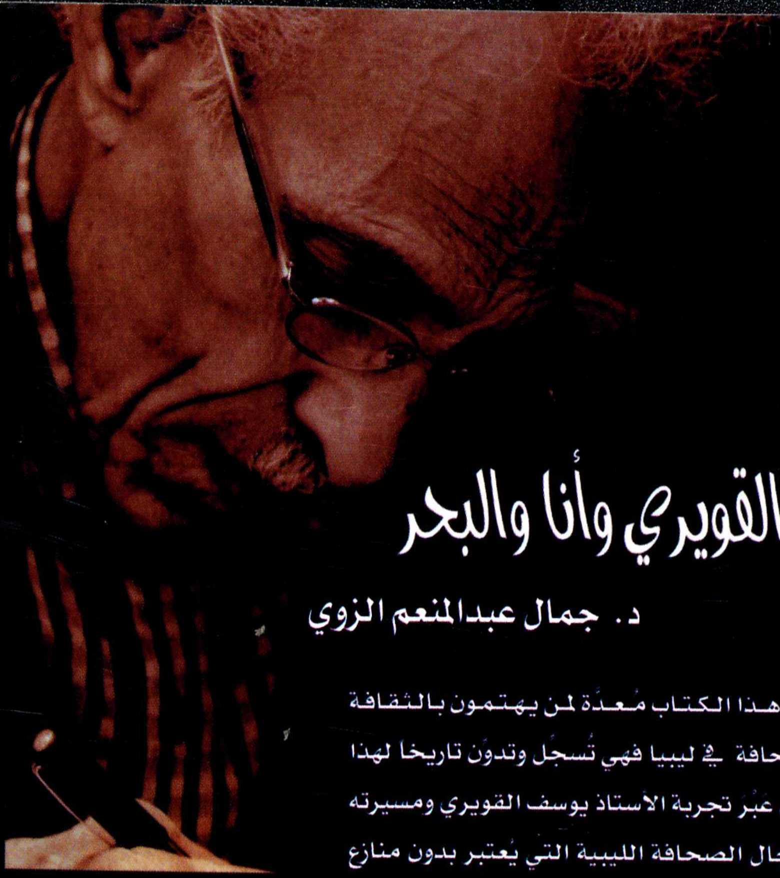
ضمن الموضوعات التي وددتُ أنْ تكون مادة منفصلة لتناولها ﴿ قراءة خاصة مع الأستاذ يوسف موضوع مقاهي أيام زمان وما كانت تمثله من تجمعات للأدباء والمثقفين..فقد تعرض الأستاذ يوسف ضمن بعض الجُمَل الاعتراضية التي وردت ﴿ حواراتنا إلى عدد من تلك المقاهي والتي جاءت عابرة خلال بعض أحاديثه..

يقول الأستاذ يوسف:

﴿ الواقع هناك مدخل واحد إلى تلك الصورة القديمة عن مقهى "جنان النوار" فبعض رواد المقهى كانوا أدباء ﴿ طَوْر النشأة أو أدباء متبلورين، فهي مكان من أمكنة لقاء الأدباء ﴿ أوائل الستينات. وخلال الخمسينات — بالنسبة لنا — كان مقهى "جنان النوار" أحد أماكن اللقاء للفئات المستنيرة والمثقفة داخل الوطن، وكذلك مقهى (الأورورا). ومن رواد هذا المقهى الأديب "خليفة التكبالي" الذي توفّاه الله إثْر عملية جراحية. وهناك ملتقى سابق لـ"أورورا" هو (سوردي) المقهى الإيطالي الجميل وموقعه ﴿ شارع الإستقلال، وكان يتردّد عليه أساتذة مصريون منهم الأستاذ "العجماوي"

المستشار الثقافي في السفارة المصرية. وكنا أنا و"عبدالله القويري" شأن كثير غيرنا من الكتّاب نتردد على المقهى. لقد كانت طرابلس مفتوحة على العالم، فكلّ الجنسيات – تقريباً – موجودة، الأمريكان و الألمان والطليان بالطبع كجالية تاريخية داخل البلد.

الفهرس



القويري وأنا والبحر

د. جمال عبدالمنعم الزوي

مادة هذا الكتاب مُعدَّة لمن يهتمون بالثقافة والصحافة في ليبيا فهي تُسجّل وتدوّن تاريخاً لهذا الشأن عبْر تجربة الأستاذ يوسف القويري ومسيرته في مجال الصحافة الليبية التي يُعتبر بدون منازع أحد أهم ركائزها ودعائمها سواء من حيث الخبرة العملية بها أو من حيث براعته الفائقة في كتابة المقالة بجميع أشكالها.

كما تحوي مادة الكتاب نماذج لموضوعات من شأنها أنْ تعكس رؤية الكاتب والأديب الليبي الذي عاش المراحل الهامة في تاريخ ليبيا والتي إرتسمت معها معالم الحياة السياسية والثقافية والإجتماعية وشهد فيها الأدب والأدباء الليبيون مراحل بين المدّ والجزْر وفترات من الإبداع والحركة والسكون.



الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE